التكثيف البلاغي
في القرآن الكريم
جزء عم

دراسة أسلوبية

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/٦/٢٣٧٦)

٢٢٥,٣
دعسان، أحمد محمد
التكثيف البلاغي في القرآن الكريم جزء عم– دراسة أسلوبية/ أحمد محمد دعسان ._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩.
(٢٣٦) ص
ر.أ.: (٢٠٠٩/٦/٢٣٧٦).
الواصفات: / بلاغة القرآن // إعجاز القرآن // القرآن /

- ❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
- ❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9957-77-011-2 (ردمك)



التكثيف البلاغي

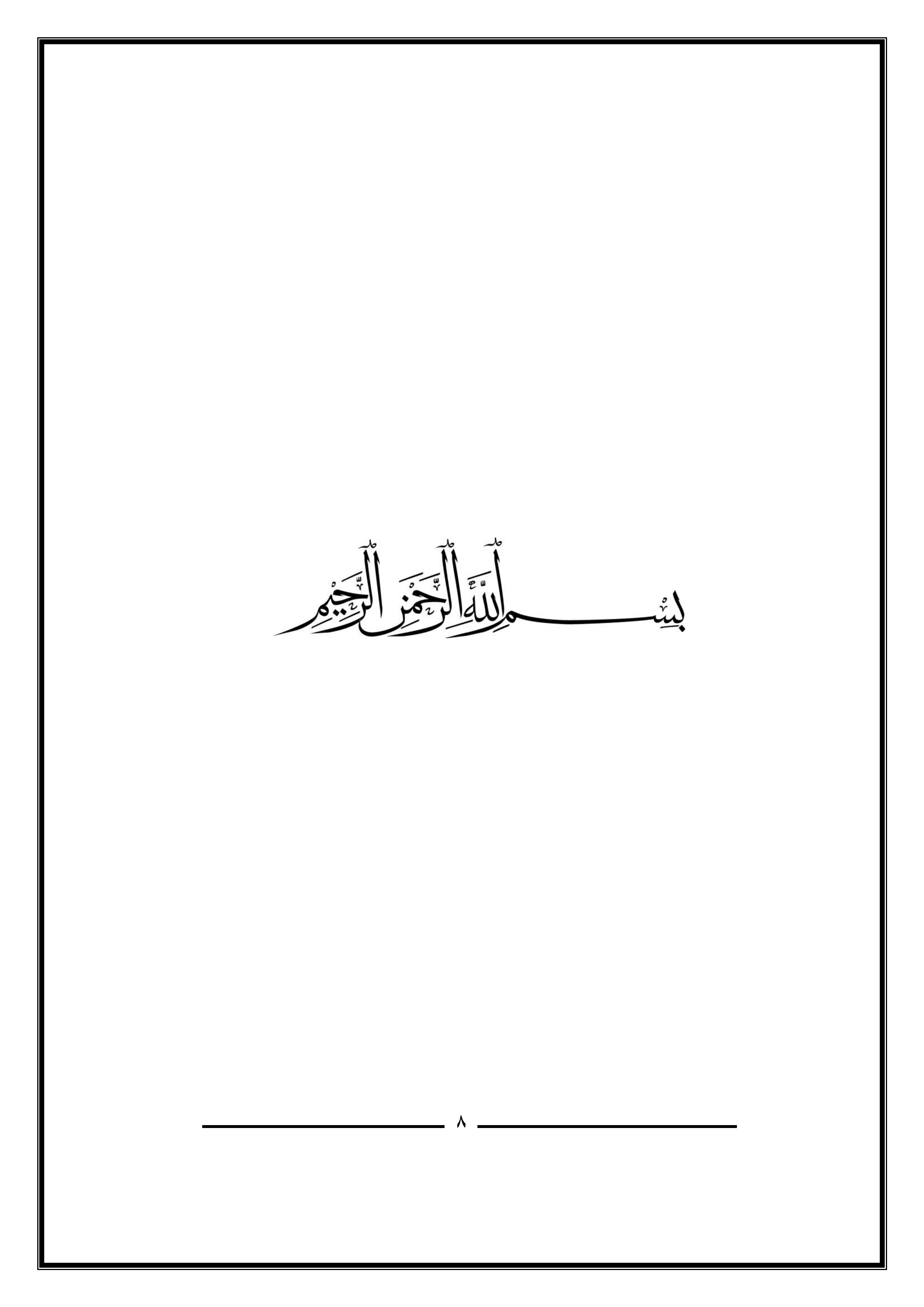
في القرآن الكريم

جزء عم

دراسة أسلوبية

أحمد محمد دعسان




بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى ...

كل من يبحث عن رضى الله ومغفرته

في زمن كثرت فيه الفتن

المؤلف

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

لعل السببَ في اختيار " جزء عم " تميزُه بأسلوب خاص في التعبير عن الموضوعات المختلفة، إذ سعى الباحث للوقوف على بعض أسرار هذا الأسلوب وقدرته على نقل رسالة مُوجهة إلى قوم حديثي العهد بالدين، وقومٍ شهدت لهم الدنيا بالبلاغة والفصاحة، لنرى كيف جمع التعبير القرآني بين الفكرة المؤثرة، والحِلية المُبهرة، دون أن يُغلِّب جانباً على آخر.

ولم تقمْ هذه الدراسة على عودها دون دراسات أخرى، بل كان للدراسات والبحوث السابقة أثرٌ في التئامها واكتمال نضجها، ومن ذلك:

١. كتاب (دراسات قرآنية في جزء عمَّ) لمحمود أحمد نحلة:

يُعد هذا الكتاب دراسة لغوية لأسلوب القرآن الكريم في جزء عمّ، حيث وقف فيه الباحث على الثروة اللفظية في جزء عمّ، وعلى المستوى الصوتي والصرفي، وتناول البناء للمجهول والتنكير والتعريف والصيغ المركبة، وإحلال صيغ محل أخرى، والحذف والاختيار في الصيغ، ثم تحدث في آخر الدراسة عن المستوى التركيبي مُفصِّلاً الحديث عن الجمل الاسمية والفعلية والشرطية والاستفهامية.

٢. كتاب (لغة القرآن في جزء عمّ):

وهو كتاب ثانٍ للباحث نفسه (محمود نحلة) تناول فيه اللغة الأدبية قبل الإسلام، والثروة اللفظية ، وعالج المستويات الصرفية والصوتية والنحوية، ويُلاحظ أنَّ موضوعات كتابه هذا تتقاطع مع بعض موضوعات كتابه السابق .

٣. رسالة ماجستير بعنوان (جزء عمّ دراسة أسلوبية) للباحث (إبراهيم الحجاج):

وقعت هذه الدراسة في نحو ثمانين صفحة، قسمها الباحث إلى ثلاثة فصول ، عرض في فصله الأول ظاهرة التقديم والتأخير (تقديم الخبر ، وتقديم المفعول به ، وتقديم الفاعل على الفعل) ، ثم انتقل للحديث في الفصل الثاني عن الحذف (حذف الفاعل وحذف المفعول به وحذف الفعل) ، وختم دراسته بالفصل الثالث الموسوم بـ (ظواهر أسلوبية أخرى) تحدث فيه عن التكرار (تكرار الحرف ، والكلمة ، والجملة) ثمَّ الاستعارة ، والمقابلة ، والجناس .

هذه هي الدراسات السابقة – مبلغ علم الباحث – المتخصصة بجزء عمّ ، ولا ينفي قوله هذا وجود دراسات أخرى إلا أنه آثر ذكر الدراسات التي تتقاطع مع جوهر دراسته، فضلاً عن استعانته بدراسات وبحوث أخرى أشار إليها في هوامش الدراسة .

وهي جهود قيِّمة استفاد منها الباحث، إلا أنَّ هذه الدراسة تتسم بخصوصية المصطلح والموضوعات في أغلب الأحيان، حيث ابتعد الباحث عن تكرار بعض المفاصل التي تحدث عنها السابقون مثل: (ظاهرة الحذف، والثروة اللفظية ...)، وتناول القضايا الأخرى من منظور آخر – على الأغلب– منظور يبرز فيه مفهوم التكثيف البلاغي . وقد أشارت الدراسات السابقة إلى دواعي هذا الشكل من التعبير في السور المكيّة، عندما أجمعت على وجود نمط تعبيري خاص يتسم بالإيجاز والسرعة الإيقاعية، إلا أنَّها لم تتفق على مصطلح خاص يمثل ذلك الشكل من التعبير.

واستخدم الباحث المنهج التحليلي الأسلوبي، الذي تجاوز من خلاله حدود التفسير اللغوي، ليطالَ المستويات اللغوية الأخرى، فوقف على الآيات وذكر آراء المفسرين، مُركزاً على عنصر الانتقاء للفظة أو الأسلوب الانزياحي ومبيناً الأسباب التي تقف وراءه، مع استعانته بالمنهج الإحصائي – أحياناً – للخروج بسمات أسلوبية .

وتبقى هذه الدراسة محاولة مجتهد لإضافة شيء مذكور إلى جهود السابقين، وإيماناً منه بأنَّ باب الاجتهاد ما زال مفتوحاً، مع أمله عدم تجاوز حدود الاجتهاد إلى العبث والخطل، والله من وراء القصد .

التمهيد

مفهوم التكثيف البلاغي وغاياته

قبل البدء بإعداد هذه الدراسة، حاول الباحث استقراء أغلبِ مصادرِ البلاغة والأسلوبية عَلَّه يجد هذا المصطلح أو نظيره، فوجد – مبلغ علمه – هذا المصطلح في عدة بحوث ودراسات،هي:

١- (التكثيف) عند عبد السلام المسدي في كتابه (الأسلوب والأسلوبية)، يقول: " التكثيف: مادة فصيحة في بنيتها الفعلية، كثَّف ويكثِّف كثافةً، وتكاثف غلظ والتف فهو كثيف، وتستعمل صيغة استكثف الشيء كان كثيفاً، واستكثفت الشيء كثيفاً، وأما المُطَّرد الحديث دون أن يكون قياسياً، فهو استعمال صيغة فعَّل وتفعَّل" [١]، يُلاحظ أنَّ مفهوم التكثيف عند (المسدي) لم يتجاوز حدوده المعجمية، وقد أورده في ملحق كتابه – هكذا- دون تفصيل على غير عادته في تفصيل المصطلحات الأخرى الواردة في ملحقه.

٢- (التكثيف) عند محمد حسن عبدالله في كتابه (الصورة والبناء الشعري)، وهو مصطلح منقول عن الإنجليزي (هربرت ريد) يقول: " فالتكثيف- هو أهم أسرار المجاز- ليس اختصاراً فحسب، بل إنه اختصار في سبيل العمق والإطناب- إنْ صح التعبير- وحرية التصور، بل قد نظر (هربرت ريد) إلى أنواع المجاز على أنها من نوع الإطناب المركز... وهو وسيلة رئيسية في تنمية

(١) عبد السلام المسدي- الأسلوب والأسلوبية ، ص ١٤٥ .

الذكاء وتنمية اللغة أيضاً " (١)، وقد سيق هذا القول في إطار الحديث عن المجاز وأثره في التعبير، وأنَّ المجاز ليس اقتصاداً لفظياً فحسب، بل يعطي القارئ حريةً وحركةً قد لا تمنحه الكلمات المُجردة، فهو اقتصاد في اللفظ لا الدلالة، وبذلك اقتصر(عبدالله) على أهمية التكثيف في الصورة المجازية، وقصد به اختزان المجاز للدلالات رغم اقتصاده اللفظي.

٣- (التكثيف) عند أحمد زكريا ياسوف في كتابه (دراسات فنية في القرآن الكريم) يقول: " وسوف نبتعد عن اختلاف القدامى في المصطلح، فهذه الجمالية اللغوية* مُوزعة تحت عناوين الإشارة، والكناية، والإيجاز، والتلميح، والتلويح، والتعريض، كما أنَّ مفهوم الاختزان ههنا لا يطابق الإيجاز كما ورد في كتبهم؛ لأنه يتضمن عندهم الإيجاز في الحذف، كحذف جواب الشرط مثلاً، وقد يعني إيجاز الآية بكليتها، وغايتنا الإيجاز في المفردة فقط " (٢)، وقد أورده في إطار برهنته على جمالية المفردة، ومنبع ذلك الجمال قدرة اللفظة على حمل المعاني الكثيرة، وبذلك انحصر مفهومه في المفردة .

وأما مصطلح التكثيف البلاغي- عند الباحث- فهو: اختزان اللفظ أو الأسلوب للدلالات المُراد نقلها إلى المتكلم، بحيث تنزاح فيه الكلمة عن حدودها المعجمية، وينزاح التركيب عن حدوده النحوية، والأسلوب عن حدوده النمطية،

---

(١) محمد حسن عبد الله- الصورة والبناء الشعري ، ص١٢٨.

* يقصد جمالية التكثيف .

(٢) أحمد زكريا ياسوف- دراسات فنية في القرآن الكريم، ص٤٩٦ .

مع اصطباغ هذا الاختزان بصبغة الإيجاز والقصر، وتتعاضد معه بعض الملامح الأسلوبية التي تُقدم المعنى بالشكل المطلوب في الموقف المناسب، وبذلك نُدْخِلُ في حساباتنا عنصر الموقفِ والسِّيَاق، إذْ تتلون الدلالات وتتفاوت باختلاف الموقف، ويخرج من هذا المصطلح كل حشد بلاغي متكلف لا يسهم في تقديم الدلالة على النحو المطلوب، وكل إيجاز مُخل لم يتناول الدلالات جميعاً .

وبذلك تظهر أوجه الاختلاف والتشابه بين مصطلح التكثيف في هذه الدراسة مع ما ذُكر سابقاً، فيتفق مصطلح الدراسة مع مصطلح (ياسوف) في اختزان اللفظ للدلالة، ومع إثباته وجود هذا المصطلح عند القدماء لكن بمسمَّيات أخرى، كما يختلف معه في إلغاء دور الحذف إذْ يُعد الحذف شكلاً من أشكال التكثيف، ويختلف – أيضاً – في اقتصاره على المفردة فحسب؛ لأنَّ التكثيف لا يقف عند حدود المفردة فقد يأتي في التركيب أوالأسلوب .

ويتفق مصطلح الدراسة مع ما ذهب إليه (عبدالله) من اقتصاد هذا المصطلح للفظ دون الدلالة، ويختلف معه في تجاوز – مصطلح الدراسة– ميدانَ الصورةِ المجازية، مع استبعاد مصطلح (المسدي) لعدم وضوح ملامحه في إطار هذه الدراسة .

وتجدر العودة إلى الحديث عن هذا المصطلح عند القدماء، فقد عرضوا لبعض المُسمَّيات التي تتقاطع مع مفهوم التكثيف أو تتصل به بوجه من الوجوه، ومن ذلك ما أشار إليه الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في كتابه الحيوان تحت

مسمّى (الإيجاز) يقول: " ولي كتابٌ جمعت فيه آياً من القرآن لتعرف فضلَ ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول، والاستعارات ... فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة " [1]، وكذلك قول الباقلاني(ت٤٠٣ هـ): " إنَّما يَحسن (أي الإيجاز) مع ترك الإخلال باللفظ والمعنى، فيأتي باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة، وهو نوعان: إيجاز حذف عن طريق الإسقاط، وإيجاز قصر ..." [2]، وقد سمَّاه بعضهم (الاقتصاد) وهو: "أنْ يكون المُضمر في العبارة على حسب ما يقتضيه المُعبَّر عنه في منزلته"[3] وهذا ضرب من الإيجاز إلا أنَّ فيه ضبطاً لحدود المعاني الكثيرة لكي تتناسب مع الموقف دونما إفراط .

ومن التكثيف ما يقع تحت مُسمَّى (الاتِّساع) يقول ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ): " وذلك أنْ يقول الشاعر بيتاً يتسع من التأويل، فيأتي كلُ واحد بمعنى، وإنَّما يتَّسع لاحتمال اللفظ وقوته واتِّساع المعنى" [4]، ومن التكثيف – أيضاً – ما يقع تحت مسمَّى (الإشارة) وهي " أنْ يكون اللفظ القليل دالاً على معاني كثيرة " [5]، أو ما سمَّاه بعضُهم (الإيماء) وهو " الاختصار المُفهم، والإطناب المفخم، وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه كما قيل

---

(١) الجاحظ– الحيوان، ج٣، تح: عبد السلام هارون، ص٨٦.

(٢) الباقلاني– إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، ص٢٦٢–٢٦٣.

(٣) ابن الأثير– المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج٢، ص٣١٦.

(٤) القيرواني– العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،ج٢، ص٩٣.

(١) ابن أبي الإصبع– بديع القرآن، تقديم: محمد حفني شرف، ص٨٢.

لمحة دالَّة " [1]، ومنهم من أطلق عليه (التعريض)، يقول الجرجاني: " إثباتك الصفة للشيء تثبتها له، إذا لم تلقه إلى السامع صريحاً، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة " [2] .

وقد يتَّصل مفهوم التكثيف بـ (الاقتدار) وهو: " أن يُبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور اقتداراً منه على نظم الكلام وترتيبه، وعلى صياغة قوالب المعاني والأغراض"[3]، ويُلاحظ هذا الجانب في القصص القرآني، فالمُسمَّيات – المذكورة سابقاً- وغيرها تدخل في مفهوم التكثيف بوصفها طرقاً او أشكالاً له مع ملاحظة تقاطعها – أحياناً- مع بعضها بعضاً، ولعل من غايات التكثيف – في جزء عمَّ – ما يلي :

١- غاية إعجازية: تتمثل هذه الغاية في إظهار سمات القرآن الكريم البيانية، من خلال قلة الألفاظ وكثرة المعاني، وقد تنبه لذلك "محمد دراز" حين وضع خطوطاً عريضة لأوجه الإعجاز في القرآن، منها: " القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى" و "البيان والإجمال" و "الإيجاز بالحذف مع الوضوح والطلاوة"[4].

٢-غاية دعوية: إذْ إنَّ طريقة عرض قضايا جزء عمّ – المتعلقة بـ (التوحيد والعقيدة، والبعث والحساب، والجنة والنار)- على هذا النحو من التكثيف

(٢) المبرد- الكامل ، ج١، ص٤٠.
(٣) الجرجاني- دلائل الإعجاز، ص ٣٠٦.
(٤) ابن أبي الإصبع- بديع القرآن ، ص٢٨٩.
(١) ينظر: محمد دراز- النبأ العظيم ، ص١٠٩، وما بعدها.

البلاغي، أسهم إلى حد كبير في نقل المعنى المنشود بجميع تفصيلاته وظروفه النفسية، وهنالك العديد ممن لاحظ وجود سمة خاصة للتعبير المكي، من ذلك:

- قول (سيد قطب) في مفتتح حديثه عن جزء عمّ: " هذا الجزء ذو طابع غالب، سوره مكية عدا (البينة) و(النصر) وكلها من قصار السور على تفاوت في القصر، والأهم من هذا هو طابعها الخاص الذي يجعلها وحدة – على وجه التقريب– في موضوعها واتجاهاتها، وإيقاعها، واتجاهاتها، وإيقاعها، وصورها، وظلالها، وأسلوبها العام " (١) .

- قول (محمد سليمان العبد): " ومن أسرار الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم مناسبة الخطاب اللغوي في السور المكية لطبيعة المكيين، فقد كانوا قوماً جبابرة... يقتضي خطابهم لغةً سريعة آخذة، غير مسترسلة، وقول حاد، حاسم، مُحذر، تَقْصُر معه الجمل ويبرز التجانس الصوتي ...، وترتبط هذه السمات بحرارة التعبير على المستوى الأسلوبي، إذ يكثر في السور المكية أسلوب القسم وأسلوب الاستفهام الإنكاري، وضرب الأمثال .." (٢) .

فيُلاحظ مما سبق تَميُّز هذا الجزء بنوع خاص من التعبير حمل على عاتقه إحداث الأثر في نفوس لم تألفْ الدين بعد، فاحتوى على أشكال بلاغية

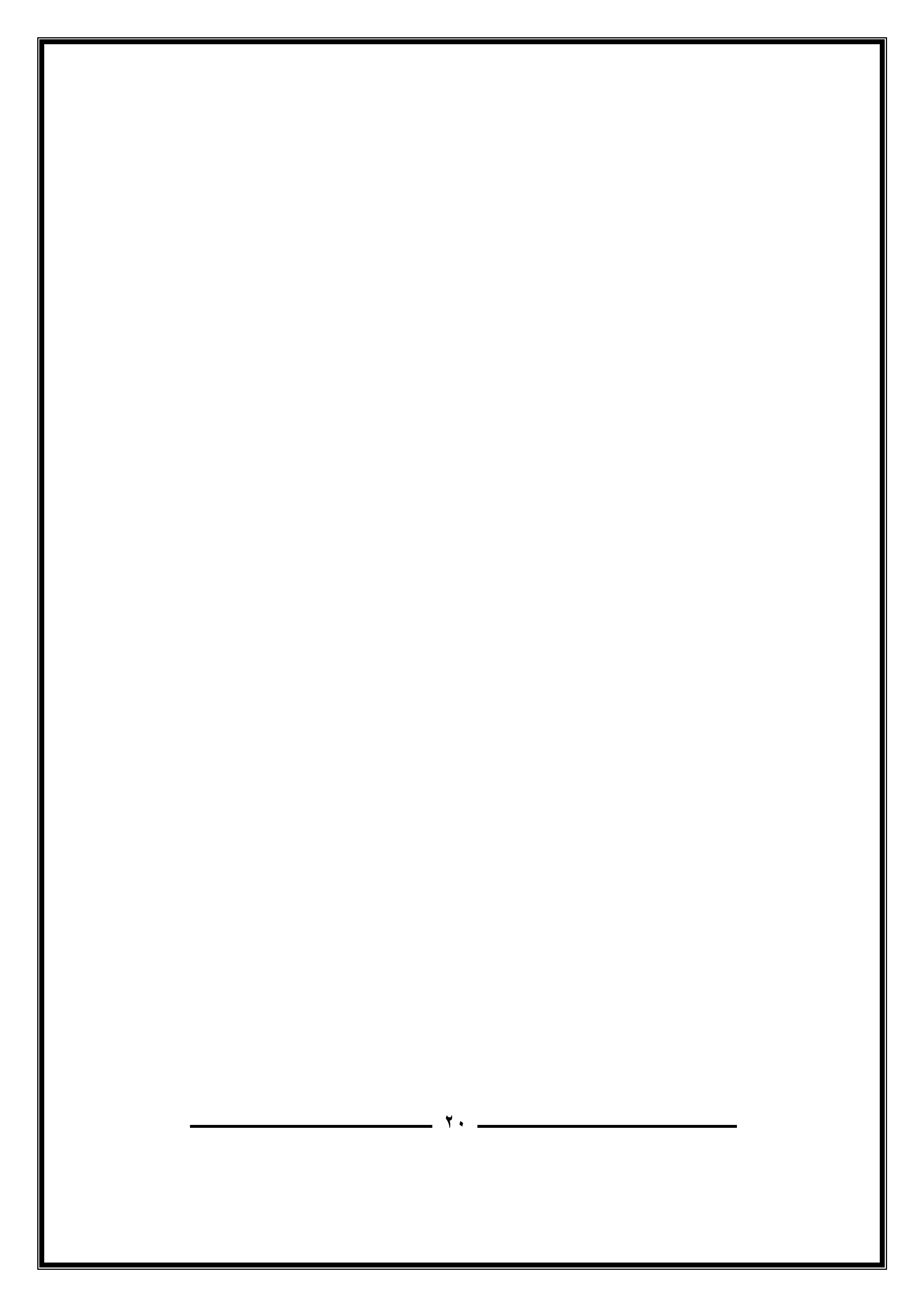
---

(٢) سيد قطب– في ظلال القرآن ، ج٣٠، ص٦.

(١) محمد سليمان العبد– من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم ، ص٨٨ ، وينظر: صبحي الصالح– مباحث في علوم القرآن ، ص١٩٤ وما بعدها.

متنوعة بإيقاعات متباينة منصهرة في قالب واحد أطلقنا عليه – اجتهاداً– "التكثيف البلاغي" .

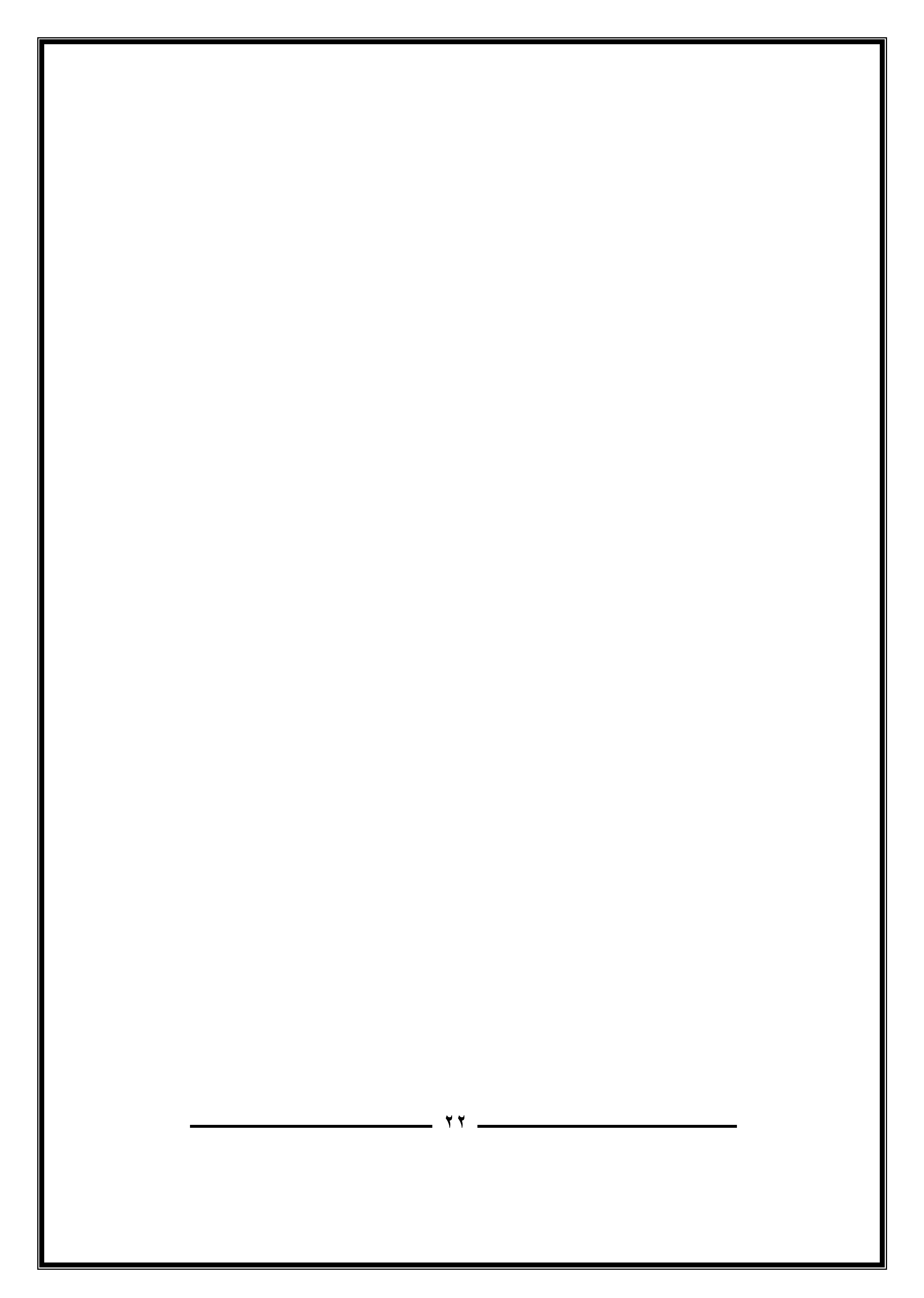
٣–غاية إقناعية: وتأتي هذه الغاية– في نظر الباحث – بعد الغاية الدعوية، إذْ تتولد – بفعل هذا التكثيف– الدلالات التي من شأنها أنْ تدفع المتلقي إلى التفكر والاتِّعاظ، وبعد ذلك التحرك والعمل بموجب ما فَهِم وعَقِل، وحينئذٍ يبرز التكثيف بوصفه إحدى وسائل الإقناع والترسيخ .



- الباب الأول –

التكثيـف فـي الصـورة

- الفصل الأول : الصـــورة التشبيهية
- الفصل الثاني : الصـــورة المـجازية
- الفصل الثالث : الصـــورة الكنـائية
- الفصل الرابع : الصـــورة الوصفية



تمهيد

تعد الصورة إحدى وسائل التعبير الموجودة منذ القدم، ولعل أول النصوص التي لامست مفهوم الصورة في تراثنا القديم ما ورد في قول الجاحظ (ت٢٥٥هـ) عندما تحدث عن الشعر بأنه " ضرب من النسج، وجنس من التصوير " [١] وكأنه أراد بلفظة (التصوير) الصورة، تلك العملية التي تصنع الشعر، وتقدم المعنى للجمهور.

وإذا ما تقدمنا قليلاً نرى من القدماء من مزج الصورة بالأشكال البلاغية، ومن هؤلاء: أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، فقد ذكر الصورة في أقسام التشبيه، إذْ جعل من أقسامه " تشبيه الشيء صورة، وتشبيهه لوناً وصورة " [٢]، وكذلك الأمرعند ابن الأثير(ت ٦٣٧هـ) عندما عدَّد أقسام التشبيه قائلاً: إما تشبيه معنى بمعنى، وإما تشبيه صورة بصورة ... وإما تشبيه معنى بصورة .. [٣] .

وكان من القدماء من تجاوز هذه النظرة للصورة، فأدخل (الشكل والمعنى) في الصورة، إنَّه الجرجاني (ت٤٧١هـ) عندما قال في كتابه دلائل الإعجاز: " إنَّما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تُعمل منها الصور

---

(١) الجاحظ – الحيوان ، تح : عبد السلام هارون ، ج٣، ص١٣٢ .
(٢) العسكري – الصناعتين ، ص٥٢١ – ٥٢٤ .
(٣) ينظر: ابن الأثير– المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج١، ص٣٧٣ وما بعدها.

والنقوش، فكما أنَّك ترى الرجل قد تهدَّى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج، إلى ضربٍ من التخير والتدبر في أنفس الأصباغ، وفي مواقعها ومقاديرها، وكيفية مزجه لها، وترتيبه إياها، إلى ما لم يهتدِ إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو، ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم " (١) .

أما مفهوم الصورة الحديث فقد تعددَ بتعددِ أصحابه ووجهات نظرهم ومدى اجتهاداتهم في وضع مصطلح شامل للصورة، ومن هذه التعريفات ما قاله علي البطل: " الصورة تشكيلُ لغويُ يكوّنها خيالُ الفنان من معطياتٍ متعددة، يقف العالمُ المحسوسُ في مقدمتِها " (٢)، وعرفتها ريتا عوض بأنها "البعد المكاني للنص الشعري المُحوّلِ اللُغة عن طبيعتها التقريرية المباشرة عن سياقها الزمني إلى سياق رمزي فني متميز" (٣)، ويرى محمد حسن عبد الله أنَّ "الصورة متمردة على جميع التعاريف وهي التشبيه والاستعارة والكناية، وهي صورة رسمت بالكلمات، أوهي الوصف بالكلمات، شُحنت عاطفة وانفعالاً، وهي التعبير ذو الدلالات وهي التجسيد للمجرد" (٤) .

---

(١) الجرجاني- دلائل الإعجاز ، ص٨٧-٨٨ .

(٢) علي البطل- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، ص٣٠ .

(٣) ريتا عوض- بنية القصيدة الجاهلية ، ص١٤٦ .

(٤) محمد حسن عبد الله - الصورة والبناء الشعري ، ص١٦٦ .

وبهذا يتضح أن الوقوف عند تعريف جامع مانع للصورة الفنية أمر ليس بالسهل، وقد اعترف بذلك عبد الإله الصائغ عندما حاول أن يجد تعريفاً وافياً للصورة الفنية، عندما قال:" وإذا كان لا بدَّ من الإشارة إلى الجهود التي درست الصورة، فإن الذي وجدناه كان مزاجاً من الاجتهادات المتأثرة بثقافة الدارس ورؤيته لطبيعة الشعر، ووظيفته فضلاً عن موقفه من التراث والمعاصرة، ولم نجد التعريف الجامع للصورة الفنية في سائر المصادر التي عرضت لها " (١) .

وأما عن نظرة الأسلوبية للصورة فترى فيها دوراً حاسماً في تحديد الأسلوب فتتميز الصور في جميع أحوالها بصيغتها التشكيلية، وبتعدد وظائفها، وكثرة علاقاتها مما يجعلها من أقدرِ الوسائل على تقديم الرؤية الشخصية والمزاج المتفرد للكاتب، فاللغة البشرية مَصُوْغَة بشكل يجعل من هذه الصور الأداة الرئيسية لتوصيل تلك الرؤية بشكل مباشر، وأصبح قابلاً للاستيعاب والتلقي المركز (٢)، والصور عندهم قاعدة لنظرية (الزخرفة) هذه الزخرفة التي جاءت على نوعين، الأولى: (الزخرفة السهلة) وتقوم على استخدام الألوان البلاغية أي: صور التركيب والتفكير، والثانية: (الزخرفة الصعبة) وتتميز باستخدام الاستعارات " (٣) .

---

(١) عبد الإله الصائغ- الصورة الفنية معياراً نقدياً ، ص١٥٨ .

(٢) ينظر: صلاح فضل- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص٢٤٨ .

(٣) بيير جيرو- الأسلوبية ، تر: منذر عياشي ، ص٢٦ – ٢٧ .

وخلاصةُ القول إنَّ النقد الحديث تجاوز مفهوم الصورة الضيق ، الذي انحصر لدى الباحثين القدماء في التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ، " فلم تعد الصورة البلاغية هي وحدها المقصودة بالمصطلح، بل قد تخلو الصورة – بالمعنى الحديث – من المجاز أصلاً، فتكون عبارات حقيقية الاستعمال، ومع ذلك فهي تشكل صورة دالة على خيال خصب " [١]، وبهذا جمع مفهوم الصورة بين النظرة القديمة والنظرة الحديثة .

ولا يتسع المقام – هنا – لترجيح تعريف أو رأي يتعلق بالصورة الفنية، بل الأجدى من ذلك الكشف عن الصورة الفنية – في جزء عمّ– التي تسعى إلى تجلية المعنى وكشف المراد بأسلوب مُشوق يلفت انتباه القارئ، فالصورة البيانية تُضخم الدلالة أو توسعها بمعنى أنها لا تنقل المعنى مباشرةً، بل تستدعي من القارئ سعةَ أفقٍ وعمقِ تفكيرٍ، يسهمان إلى حدٍ كبير في التقاط الدلالة بشكل أفضل مما لو طرحت الفكرة مباشرة دون بيان.

والقرآن الكريم يستعمل الصورة الفنية في مواطنَ كثيرةٍ ؛ لنقل الفكرة إلى المتلقي وتوضيحها، وبَعْثِ إيحاءاتٍ متعلقة بالفكرة الأساس في نفسه، يقول سيد قطب: " التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبِّر بالصورة

(١) علي البطل– الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، ص٢٥ .

المُحَسَّة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور ..." (١) .

فمخاطبةُ الناسِ بطريقة مباشرة خالية من التصوير، تلامس أذهانهم ولا تقتحمها ؛ إذْ بدون التصوير – غالباً – تصبح التعابير جامدة ضعيفة الأثر والتأثير، فمن خلال الصورة " يواجه القرآن النفس من جميع أقطارها، فلا تصير الدعوى إلى الإيمان مجردَ جدلٍ منطقي مؤسسٍ على مقدماتٍ عقليةٍ وبراهينَ فلسفيةٍ، بل تصبح كشفاً روحياً لا يَحتاج معه الإنسان إلا أن يخلص النظر إلى أعماقه " (٢) .

ويتسع معنى التصوير في القرآن ليشملَ " التصوير باللون والتصوير بالحركة، والتصوير بالتخييل، والتصوير بالنغمة، التي تقوم مقام اللون في التمثيل، ويسهم الوصف والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق في إبراز هذه الصور" (٣).

ولم يُعمد – في هذا الباب– إلى دراسة الصورة بالتوقف عند القضايا الشكلية والعلاقات الحرفية بل سُعي إلى دراستها من منظور تتبدى فيه آلية البناء الفني التصويري في جزء عمّ ، وأثره في نقل الإحساسات والعواطف كي

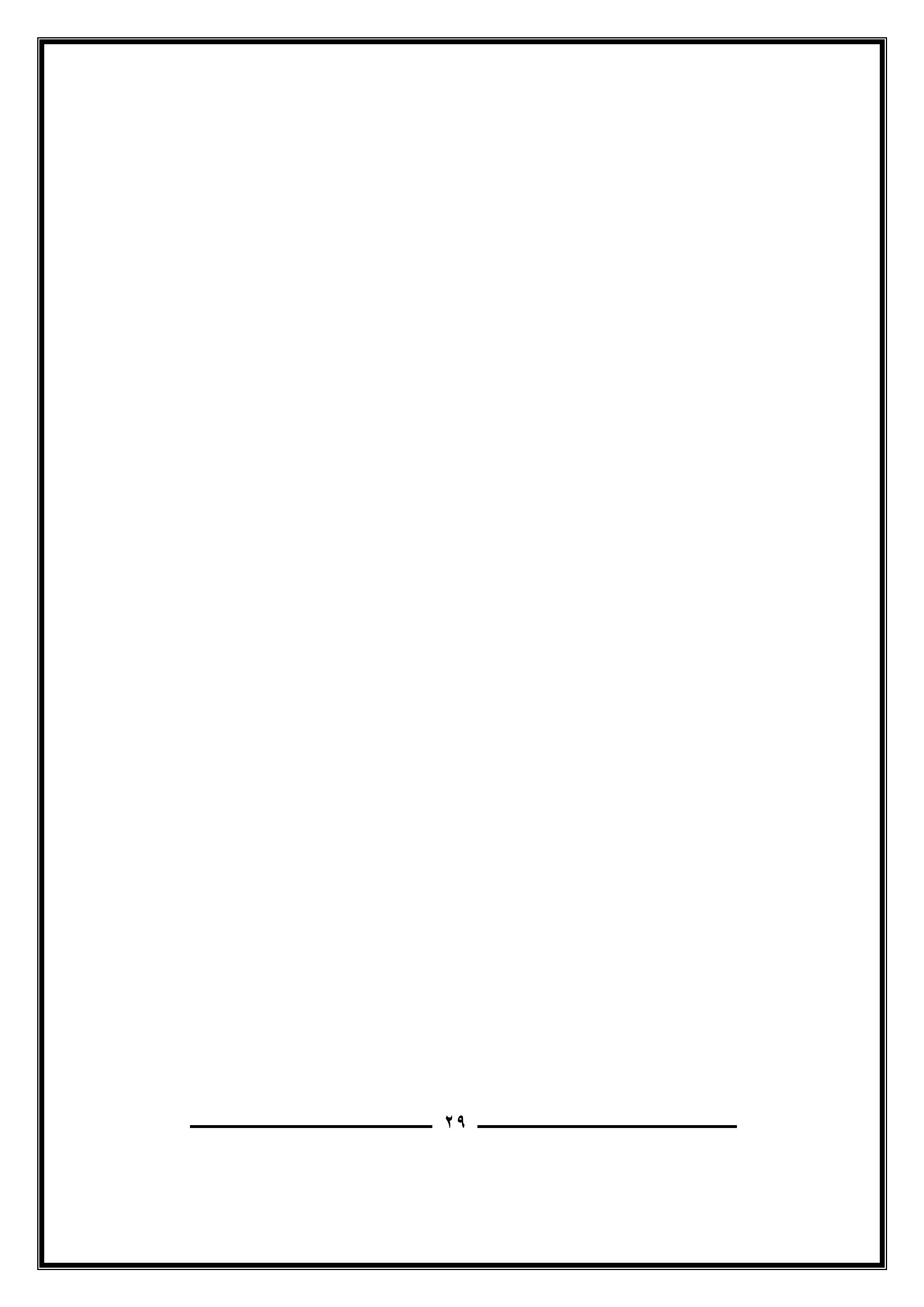
---

(١) سيد قطب– التصوير الفني في القرآن ، ص٣٦ .
(٢) محمد بركات حمدي أبو علي– في الأدب والبيان ، ص١١٨ .
(٣) سيد قطب– التصوير الفني في القرآن ، ص ٣٧ .

تعبر الصورة عن الفكرة بطريقة حيوية " تزخر بالعاطفة والتجربة والانفعال لا مجرد تصوير عادي ميت ، وتصبح وكأنك أمام مناظر تصوير متحركة ومؤثرة " [١]، ولعل هذا المنظور هو (التكثيف) الذي نبحث من خلاله عن عنصر اختزان اللفظة – التي بُنيت عليها الصورة – للدلالات المُرادة ، وأثر هذا التكثيف في إكمال ملامح الصورة المرسومة ، مع تبيان بعض السمات الأسلوبية التي تتعاضد مع التكثيف لإبراز الصورة وشحذها بما يلزم لتكون أشدَّ وقعْاً وتأثيراً .

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجي– النقد العربي الحديث ومذاهبه ، ص٤٦ .



الفصل الأول

الصورة التشبيهية

التشبيه لغةً: " الشِّبه والشَّبَهُ والشبيه: المثل ، والجمع أشباه، وأشبه الشيءُ الشيءَ: ماثله " [(١)]، وأما اصطلاحاً فقد تعددت تعريفاته، فهو عند الجرجاني (ت٤٧١هـ): " الشيئان إذا شُبه أحدهما بالآخر ، وكان ذلك على ضربين أحدهما: أنْ يكونَ من جهة أمرٍ بيّنٍ لا يُحتاج فيه إلى تأول ، والآخر: أنْ يكون الشبه مُحصَّلاً بضربٍ من التأول " [(٢)]، وعند القزويني (ت٧٣٩هـ): " الدلالة على مشاركة أمرٍ لآخر في معنى، وهو ما لم يكن على الاستعارة الحقيقية، ولا الاستعارة بالكناية، ولا التجريد" [(٣)]، وعند المحدثين: " إلحاق أمر المشبه بأمر المشبه به في معنىً مشترك (وجه الشبه) بأداة الكاف وكأن وما في معناهما لغرض فائدة ما " [(٤)]، أو هو " إلحاق أمرٍ بأمر آخر في صيغة أو أكثر من أدوات التشبيه ملفوظةً أو ملحوظةً " [(٥)]، ويمكن التوليف بين هذه التعريفات في أن التشبيه صورة تقوم على تمثيل شيء بشيء آخر، لاشتراكهما في صفة (حسية أو مجردة) أو أكثر .

---

(١) ابن منظور– لسان العرب، م٨، ص١٧ .

(٢) الجرجاني– أسرار البلاغة ، تح : محمد رشيد رضا ، ص١١٥.

(٣) القزويني– الإيضاح في علوم البلاغة ، شرح : محمد عبد المنعم خفاجي ، ج٢، ص٣٢٨ .

(٤) فضل حسن عباس– البلاغة فنونها وأفنانها ، ص١٧ .

(٥) يوسف أبو العدوس– مدخل إلى البلاغة العربية ، ص١٤٤ .

ويُعد التشبيه من أول الأساليب التي أشار إليها الأقدمون مثل: أبي عبيدة، والفراء، والجاحظ، والمبرد، وكان لهم إشارات لطيفة في هذا المجال، وكان المبرد أول من توسع في بحثه للتشبيه، وقسمه ومثل له وتتابع – بعد ذلك – العلماء في سر إظهار بدائعه وشرح روائعه " (١) .

وتبثُ الصورة التشبيهية الحياةَ في المعاني الأصلية، وبذلك تصبح هذه الصورة حية شاخصة في أذهاننا ؛ لما فيها من حركة مستمرة ومتجددة إضافةً إلى توضيحها للمعنى الأصلي، عن طريق نقل المتلقي أو السامع من الشيء المألوف إلى صورة أخرى لها شبه بالمعنى الأصلي (٢) .

ويمكن دراسة الصورة التشبيهية من خلال العناصر التي تساعد على رسمها، ومنها: العناصر الفاعلية النفسية، والتجربة الشعورية التي يكشف عنها التشبيه، والإيحاءات التي تفيض بها الكلمات المكتنزة بالمعاني " (٣) .

ومن الصور التشبيهية الواردة – في جزء عمّ– قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾(٤)، وقد وردت هذه الآية في إطار الحديث عن نعم الله– عز وجل– على الإنسان، وبدأها بنعمة تسخير الأرض للإنسان، والمهاد في الأصل

(١) ينظر : فضل حسن عباس– البلاغة فنونها وأفنانها، ص١٨.
(٢) ينظر : مختار عطية– علم البيان وبلاغة التشبيه، ص٥٢ .
(٣) يوسف أبو العدوس– مدخل إلى البلاغة العربية ، ص١٦٤ .
(٤) النبأ : ٦

اللغوي الفراش ، جاء في لسان العرب " مَهَدَ لنفسه يمهد مهداً: كسب وعمل، والمهاد الفراش ، وقد مهدت الفراش مهداً بسطته ووطأته ، يقال للفراش مِهاداً: لوثارته، ومهَّد لنفسه خيراً وامتهده: هيأه وتوطأه ، ومَهْدُ الصبي: موضعه الذي يهيأ له ويوطأ له لينام فيه، وتمهيد الأمور: تسويتها وإصلاحها، وامتهاد السنام: انبساطه وارتفاعه، والمهدة من الأرض ما انخفض في سهولةٍ واستواء " (١) .

جاء في تفسير الكشاف للزمخشري (ت٥٣٨هـ) "مهاداً فراشاً، وقرئ مهْداً ومعناه أنها لهم كالمهد للصبي، وهو ما يمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر كضرب الأمير أو وصفت بالمصدر، أو بمعنى: ذات مهد" (٢)

وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت٦٧١هـ): " دلَّهم الله – عز وجل – على قدرته على البعث أي قدرتنا على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة، والمهاد: الوطاء والفراش " (٣)، وقد ذهبت أغلب التفاسير(٤) إلى هذا المعنى .

---

(١) ابن منظور– لسان العرب ، م١٤ ، ص١٤١ – ١٤٢ .

(٢) الزمخشري– الكشاف، ج٤، ص٦٨٥ .

(٣) القرطبي– الجامع لأحكام القرآن ، م١٩ ، ص١٧١ .

(٤) ينظر : الرازي– التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١ ، ص٦–٧، والبيضاوي – أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بـ " تفسير البيضاوي" ،ج٥ ، ص٢٧٨، وأبو حيان الأندلسي– البحر المحيط ، ج٨، ص٤١٠، وابن كثير تفسير القرآن العظيم، ج٤،ص٤٦٢.

ففي الصورة دقة في اختيار اللفظ تعكس قوة المعنى وغايته، إذ تختزن لفظة (مهاد) دلالات التهيئة الكاملة للأرض من بسط ولين وثبات وخلْقٍ للماء والنبات .... وغيره من آلاف المقومات التي تجعل من الأرض سكناً مثالياً، يقول الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر في هذا السياق " لقد كشفت الملاحظات العلمية عن تناسقات ملحوظة في خلق الكون بحيث يصبح مهيأ للعيش، فالأرض بهيئتها هذه، وبُعْدِ الشمس عنها بمعدلٍ مثالي، و بُعْدِ القمر عنها بمقدار موزون، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها، وسرعة حركتها، وتكوين سطحها، وخصائص الماء .. والهواء .. والجاذبية .. والكهرباء .. والآلاف من المقومات المترابطة التي تجعل من الأرض سكناً مثالياً للإنسان والحياة " (١) .

وتكاد الآية ألا تكون تشبيهاً، فهي حقيقة ثابتة حيث تُعد الأرض فراشاً ينام عليه الإنسان هادئاً مقرور العين، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنَّ المُمهد للفراش يقصد من تمهيده راحة الممهد له، فما بالك بخالق السماوات والأرض عندما يذلل تلك الأرض ويمهدها للإنسان في إشارة عظيمةٍ لإحدى نعمه الغزيرة التي تستوجب الطاعة والعبادة.

وقد أتبع تشبيه الأرض بالمهاد بتشبيه آخر بليغ يسهم في تحقيق معنى المهاد للأرض، وهو (تشبيه الجبال بالأوتاد)، ويعد هذا التشبيه من

---

(١) عبد العليم عبد الرحمن خضر– الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن ، ص١٢٨ – ١٢٩ .

الوسائل التي تحفظ للأرض توازنها من الميلان والانحراف، قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (1) والوتدُ في اللغة: " ما رُزَّ في الحائط أو الأرض من الخشب والجمع أوتاد " (2)، جاء في تفسير هذه الآية " أي أرسيناها بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد " (3)، وعند الرازي (ت٦٠٦هـ): " أي للأرض كي لا تميد بأهلها " (4)، وعند القرطبي (ت٦٧١هـ): " أي لتسكن ولا تتكفئ ولا تميل بأهلها " (5)، وعند ابن كثير (ت٧٧٤هـ): " أي جعل لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها " (6) .

وتثبت الدراسات العلمية دقة هذا التشبيه، فقد أثبت العلم الحديث أنَّ وجود الجبال على سطح الأرض مُوزعة بدقة وحكمة يساعد على التوازن بين المرتفعات والمنخفضات بحيث لا تميد الأرض ولا تضطرب، وأثبت أيضاً أن

---

(١) النبأ : ٧
(٢) ابن منظور– لسان العرب ، م١٥ ، ص١٤٦ .
(٣) الزمخشري – الكشاف ،ج٤،ص٦٨٥ .
(٤) الرازي– التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١ ، ص٧ .
(٥) القرطبي– الجامع لأحكام القرآن ، م١٩ ، ص١٧١.
(٦) ابن كثير– تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص٤٦٢.

للجبال امتدادات عظيمة الشأن تحت القشرة الأرضية [١] قد تصل هذه الامتدادات والجذور إلى عشرة أضعاف ارتفاعها [٢].

كما أن تشبيه (الجبال بالأوتاد) تشبيه بليغ، يُستغنى فيه عن أداة التشبيه ووجه الشبه ؛ " وحتى يصير عين المشبه به بلا تفاوت، وأدعى إلى المبالغة والتوكيد " [٣]، فالجبال بحدِّ ذاتها أوتاد ضاربة جذورها في عمق الأرض، وبذلك يتعاضد التشبيه مع الحقائق العلمية ليدل على قدرته – عز وجل – ونعمته، بأن سخر لنا الأرض، ويلاحظ في الصورتين السابقتين التناسق الفني والتتابع المنتظم، حيث تقدم ذكر الأرض على الجبال من باب تقديم الكل على الجزء، والأصل على الفرع، والأهم فالمهم، وإتباع الأرض بصورة الجبال يجسد علاقة الالتصاق على وجه الحقيقة بينهما، كما أن لفظة (وتد) تختزن إيقاعاً يوحي بسمة الالتصاق مع القوة من خلال اجتماع حرفي (التاء، والدال) فكلاهما صوت انفجاري يلتقي فيهما طرف اللسان بأصول الثنايا العليا [٤]، فكثيراً ما تحاكي الأصوات دلالاتها .

---

(١) ينظر : محمد كامل عبد الصمد – الإعجاز العلمي في الإسلام ، ص٨٢ – ٨٣.

(٢) ينظر : زكريا هميمي– الإعجاز العلمي في القرآن ، ص١٥١ ، وينظر: حسن أبو العينين– من الإعجاز العلمي في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية ، ج٢ ، ص١٦١ وما بعدها .

(٣) عبد الفتاح لاشين– البيان في ضوء أساليب القرآن ، ص٣٩ .

(٤) إبراهيم أنيس– الأصوات اللغوية ، ص٦١.

وعلى النقيض من صورة الجبال الثابتة، يظهر قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[1]، جاء في الكشاف للزمخشري (ت٥٣٨هـ): " يعني أنها تصير شيئاً كلا شيء ؛ لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها " [2] ، وعند القرطبي (ت٦٧١هـ): " أي لا شيء كما أنَّ السراب كذلك: يظنه الرائي ماءً، وقيل (سيرت) نسفت من أصولها، وقيل: أزيلت عن مواضعها " [3] ، وعند البيضاوي (٦٩١هـ): " مثل سراب إذ تُرى على صورة الجبال ولم تبقَ على حقيقتها؛ لتفتت أجزائها وانبثاثها " [4]، والسراب" ما يجري على وجه الأرض كأنه الماء " [5]، فاعتمد التشبيه في هذه الصورة على ظاهرة مألوفة للإنسان، ظاهرة متكررة يراها في حياته، " وإذا كان المسلم لا ينتمي إلى بيئة صحراوية فلا يُعفيه ذلك من السير في الأرض، والبحث في أعماق ذلك الكون وأسراره، ولهذا تكرر ورود السير في قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ)، وقوله: (قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ) أكثر من اثنتي عشرة مرة في كتاب الله " [6] .

---

(١) النبأ : ٢٠

(٢) الزمخشري- الكشاف، ج٤، ص٦٨٨ .

(٣) القرطبي- الجامع لأحكام القرآن ، م١٩ ، ص١٧٦ .

(٤) البيضاوي- تفسير البيضاوي، ج٥ ، ص٢٧٨.

(٥) ابن منظور- لسان العرب ، م٧ ، ص١٦١ .

(٦) محمد علي أبو حمدة - البهيج في أساليب البيان ، ص٨٨ - ٨٩ .

فعندما كانت الجبال وسيلة لحفظ توازن الأرض غدت في هذه الصورة سراباً لا قيمة له، وفي انتقاء لفظة (السراب) إثارة لمعنى التلاشي، الذي يتضاد مع دلالات (الوتد) في الآية السابقة، وقد جاء التقابل بين صورة الوتد وصورة السراب في السورة نفسها، فما دلالة هذا التقابل؟ .

لعل في ذكر هاتين الصورتين بياناً للفرق بين حال الكون في وضع التسخير، وحال الكون يوم الفصل يوم الانقلابات الكونية، وفي هذا كسرٌ للتوقع الذي يلفت انتباه القارئ إلى لحظة الانفلات الكوني، ويحمل له شحنات نفسية يزجها دفعة واحدة موقعةً في نفسه الخوف والرهبة، وبياناً على أنَّ حالة الانضباط الكوني مرهونة بانتهاء التسخير، فيجب عليك أيها الإنسان أن تعمل وتجتهد قبل أن تزول عوامل التهيئة بانتهاء مدة الاختبار، ويشير هذا التقابل أيضاً إلى قدرة الله – عز وجل– على التغيير في الخلق فهو المسيطر على الكون فالتقابل أساس الكون وليس التماثل، فانظر ما حققه التكثيف في الصورة من فتح لدلالات تجاوزت حدود تشبيه الجبال بالوتد أو السراب .

ومن الملامح الأسلوبية على مستوى التركيب في الصورة السابقة زيادة فعل الكينونة (كانت) حيث أسهم هذا الفعل في تأكيد الحدث، وأنه ليس مجرد تشبيه، وإنَّما فيه تحولٌ كامل إلى المشبه به، فهي حقيقة ستكون وتحصل، وفي صورة أخرى للجبال في موقف الانقلابات الكونية نرى قوله تعالى:

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [1]، والعهن الصوف المصبوغ ألواناً، وقيل كل صوف عهن، " ونفشَ الصوف: مده حتى يتجوف، ونفشت الإبل تفرقت، والنَّفش: المتاع المتفرق " [2]، جاء في تفسير هذه الآية عند الزمخشري (ت٥٣٨هـ): " وشبَّه الجبال بالعهن، وهو الصوف المُصَبَّغُ ألواناً لأنَّها ألوان، والمنفوش منه لتفرق أجزائها " [3]، وقد أشارت أغلب التفاسير[4] إلى هذا المعنى .

وأما عن سبب تشبيه الجبال بالصوف المُلون تحديداً ، يقول الرازي : " واعلم أن الله تعالى أخبر أنَّ الجبال مختلفة الألوان على ما قال (وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) " [5] ، إلا أن هذا التعليل موجود عند الزمخشري المتوفى (٥٣٨هـ) ولكنه لم يأتِ في تفسير هذه الآية، وإنمّا في تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾[6] عندما قال : " كالصوف المصبوغ ألواناً ؛ لأن الجبال جددٌ بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب

(١) القارعة : ٥
(٢) ابن منظور– لسان العرب ، م١٤ ، ص٣٢٣ .
(٣) الزمخشري– الكشاف،ج٤ ، ص٧٩٦ .
(٤) ينظر : القرطبي– الجامع لأحكام القرآن ، م٢٠ ، ص١٦٥ ، والبيضاوي – تفسير البيضاوي ، ج٥ ، ص٣٣٣ ، وابن كثير – تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص٥٤٣ .
(٥) الرازي– التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣٢ ، ص٧٣ .
(٦) المعارج : ٩

سود، فإذا بُست وطيِّرت في الجو أشبهت العهن المنفوش، إذا طيّرته الرياح " [1].

وبما أننا وقفنا على هاتين الآيتين (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ)، وقوله تعالى: (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ)، يحق لنا التساؤل عمَّا حققته زيادة كلمة (المنفوش) في سورة القارعة دون سورة المعارج، ولعل ذلك يعود إلى[2] أنَّ القارعة من القرع وهو الضرب بالعصا فناسب ذلك ذكر النفش، لأنَّ من طُرق نفش الصوف ضربه بالمقرعة، كما ناسب ناحية أخرى وهي أنَّ الجبال تُهشم بالمقراع، وهو من القرع (فأس عظيم تحطم به الحجارة).

كما ناسب ذكر العهن المنفوش قوله تعالى في آخر السورة: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾[3] ؛ لأن النار الحامية هي التي تذيب الجبال وتجعلها كالعهن المنفوش، وذلك من شدة الحرارة في حين ذكر صفة النار في المعارج بقوله تعالى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾[4] والشوى هو جلد الإنسان، والحرارة التي تستدعي نزع جلد الإنسان أقل من التي تذيب الجبال وتجعلها كالعهن المنفوش، فناسب زيادة (المنفوش) في القارعة، فلفظة (المنفوش) تختزن

---

(١) الزمخشري- الكشاف ،ج٤، ص٦١٢ .
(٢) ينظر : تعليل فاضل إبراهيم السامرائي- لمسات بيانية ، ص١٩٨ – ٢٠٠ .
(٣) القارعة : ١١
(٤) المعارج : ١٥ – ١٦

دلالات تتناسب مع الجو العام للسورة، وكان لزيادتها أثرٌ عظيمٌ في إكمال ملامح الصورة المرسومة.

ولم يقتصر ذكر الجبال – في مواقف الانقلابات الكونية – على هذا التشبيه فقط، فقد ورد في القرآن الكريم آيات عدة، تتحدث عن حال الجبال يوم القيامة ، منها : *

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ (١)

قوله تعالى: ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ (٢)

قوله تعالى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ (٣)

قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (٤)

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ (٥)

قوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ (٦)

---

* محمد فؤاد عبد الباقي – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص١٦٣ – ١٦٤ .

(١) الكهف : ٤٧

(٢) الطور : ١٠

(٣) الواقعة : ٥

(٤) الحاقة : ١٤

(٥) المعارج : ٩

(٦) المزمل : ١٤

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [١]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [٢]

قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [٣]

يلاحظ في هذه الآيات تكرار فعل سير الجبال في أربعة مواضع، وهو فعل ذو أهمية يختزن القدرة على إحداث الفوضى الكونية يوم القيامة، فإذا ما سُيرت الجبال زالت أوتاد الأرض، وحينها يبطُل العمل الذي تؤديه الجبال، ويضطرب مدار الأرض، وتضيع السماء حيث ترتطم بغيرها من الكواكب، وعندما تزول الجبال، تميد الأرض وتضطرب وتهتز وتفلت مدارها مقتربةً من الشمس، فيهلك كل شيء على سطح الأرض [٤]، وهذا أيضاً مبرر آخر لتكرار صورة الجبال بشكل عام في مشاهد الانقلابات الكونية حيث يكون لها الدور الأبرز في إحداث الفوضى الكونية .

وقد يظن ظانٌّ أنَّ هذه الآيات حملت الدلالة نفسها، وأنَّ النسف كالدك والعهن، وهذا ليس دقيقاً، بل لكل آية دلالتها التي تمثل حالاً من أحوال الجبال المختلفة يوم القيامة، يقول الرازي (ت٦٠٤هـ): " اعلم أنَّ الله تعالى ذكر في

---

(١) المرسلات : ١٠

(٢) التكوير : ٣

(٣) النبأ : ٢٠

(٤) ينظر : عبد العليم بن عبد الرحمن خضر – الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن ، ص٩٢ .

مواضع من كتابه أحوال هذه الجبال على وجوه مختلفة، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذي نقوله، وهو: إنَّ أول أحوالها الاندكاك، وهو قوله تعالى: (وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً) ، والحالة الثانية لها: أن تصير (كالعهن المنفوش) وذكر الله تعالى ذلك في قوله: (يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ) وقوله تعالى: (يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ) .

والحالة الثالثة: أن تصير كالهباء، وذلك أن تنقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن وهو قوله تعالى: (وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا) ، والحالة الرابعة: أن تنسف ؛لأنها مع الأحوال المتقدمة قارَّةٌ في مواضعها ، والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها، وهو المراد من قوله تعالى: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا).

والحالة الخامسة: أنَّ الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيرها شعاعاً في الهواء كأنَّها غبار، فمن نظر إليها من بُعْد حَسِبَها لتكاثفها أجساماً جامدة ... ثمَّ بيَّن أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره، فقال: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً)، والحالة السادسة: أن تصير سراباً ، بمعنى لا شيء، فمن نظر

إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً، كما أن من يرى السراب من بُعْد إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجده شيئاً، والله أعلم " (١) .

وقد جاء تشبيه الجبال بالصوف ؛ لإظهار قدرة الله عز وجل والرد على من أنكر البعث، يقول العلوي (ت٧٤٨هـ) في الطراز: " وما كان لتشبيه الجبال مع اختصاصها بالصلابة والقوة بأضعف ما يكون وأرخاه وهو (الصوف) ؛ لأنه ألين ما يكون عند نفشه إلا لإظهار باهر القدرة والمبالغة في الرد على من أنكر الميعاد الأخروي، وتكذيباً لمن حاك في صدره استبعاد ذلك " (٢) .

ويُلاحظ أنَّ وجه الشبه في هذه الصورة يرمي إلى رسمها في الأذهان كما يراها الحس، وكما تحسُّ بها النفس (فالعهن المنفوش) يصور أمامك منظر الجبال وقد صارت هشة تحمل إلى نفسك معنى الخفة واللين (٣) .

وقد وردت لفظة الجبال في جزء عمّ، في ستة مواضع يمكن قسمتها إلى مجموعتين: الأولى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٤) ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ (٥) ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ

---

(١) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١ ، ص١٢ – ١٣ .
(٢) العلوي– الطراز ، ص١٤٦ .
(٣) ينظر : عبد الفتاح لاشين – البيان في أساليب القرآن ، ص٤١ .
(٤) النبأ : ٧
(٥) النازعات : ٣٢

نُصِبَتۡ ﴾ [١] ، والثانية: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴾ [٢] ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴾ [٣] ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴾ [٤]، ولكلٍ مجموعةٍ سمةٌ واضحةٌ، فالأولى جاءت في مقام بيان قدرته -عز وجل- على الخَلْقِ، وتسخير الأرض، وتذليلها بوساطة تلك الجبال، فهي بمنزلة الوتد أو المرسى الضاربين في أعماق الأرض، والثانية جاءت في بيان حال الجبال يوم القيامة .

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾ [٥] ففي الصورة حديث عن أهوال يوم القيامة، وحال خلقه وقت البعث، جاء في الكشاف: " شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار، قال جرير: إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطلي ، وفي أمثالهم: أضعف من فراشة وأذلُّ وأجهل ، وسُمي فراشاً لتفرشه وانتشاره " [٦] ، وعند البيضاوي (٦٩١هـ): " في كثرتهم وذلتهم واضطرابهم " [٧] ، وعند ابن كثير (٧٤٢هـ): "

---

(١) الغاشية :١٩

(٢) النبأ : ٢٠

(٣) التكوير: ٣

(٤) القارعة : ٥

(٥) القارعة : ٤

(٦) الزمخشري- الكشاف ،ج٤ ، ص٧٩٦ .

(٧) البيضاوي- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ج٥ ، ص٣٣٣ .

أي في ذهابهم ومجيئهم من حيرتهم ؛ لما هم فيه كأنهم فراش مبثوث " [١]، وعند المراغي: " الفَرَاش: هو الحشرة التي نراها تترامى على ضوء السراج ليلاً، وبها يُضرب المثل في الجهل بالعاقبة، والمبثوث: المتفرق المنتشر، تقول بثثتُ الشيء أي فرقته، أي أنَّ الناس من هول ذلك الموقف يكونون منتشرين حيارى هائمين على وجوههم لا يدرون ماذا يفعلون، ولا ماذا يراد بهم، كالفراش الذي يتجه إلى غير جهة واحدة، بل تذهب كل فراشة إلى جهةٍ غير ما تذهب إليها الأخرى " [٢] .

وعلى هذا فإنَّ للفراش صفاتٍ تتقاطع مع حال الناس يوم البعث ، كالكثرة ، والخفة ، والتطاير ، والضعف، وبهذا التشبيه تظهر حالة الذعر والتطاير وضعف الحول والحيلة من الناس ، إذ لا يملكون إلا اتِّباع أجراس الآخرة مهطعين إلى الداعي لا يملكون أمرَ أنفسهم .

وفي هذا التشبيه إيجازٌ يختزن دلالات مثقلة مشبعة بإيحاءات متباينة، وشحنات نفسية تعكس هول الموقف وشدته ، وهو تشبيه يُكتفى فيه بالمشبه وأداة التشبيه والمشبه به دون ذكرٍ لأوجه الشبه ؛ ليجعل المتلقي منشغلاً بالبحث عن أوجه الشبه المتعددة المختلفة ، ويفهم في نهاية الأمر المغزى العميق من الصورة، ويتخيل نفسه في هذا اليوم وكيفية الخلاص منه بسلام ، وعندها يعود إلى الله بالطاعات والعمل الدؤوب ، " فبهذا الإجمال لم يقصد الباث

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص٥٤٣.
(٢) المراغي – تفسير المراغي ، ج٣٠ ، ص٢٢٦

تحديد مجال للتقاطع ، وإنما تركه غائماً، وهو دون شك يُعوِّل في ذلك على حدس سامعه في الاهتداء إلى المعنى المطلوب " (١) ، مع العلم بأن هذا التعدد في أوجه الشبه لا يصل إلى درجة الغموض أو التعتيم ، وقد أطلق البلاغيون القدماء على مثل هذا التعدد في الدلالة مفهوم (الاتِّساع) * ، وهو أحد أشكال تكثيف المعنى .

كما أسهم هذا التشبيه في الإبانة والتوضيح وهي فائدة التشبيه الكبرى، إذ بالتشبيه "يخرج المبهم إلى الإيضاح والملتبس إلى البيان، ويكسوه حلة الظهور بعد خفائه، والبروز بعد استتارته " (٢) . فقد جاءت هذه الصورة بعد قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾(٣) موضحةً ومبينةً لأهوال هذا اليوم، وما يحدث فيه من تطاير للناس والجبال .

وقد عزا الرازي ضمَّ صورة الناس إلى صورة الجبال في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ

(١) الأزهر الزناد – دروس البلاغة العربية (نحو رؤية جديدة) ، ص٢٢.

* ينظر: تمهيد الكتاب – ص١٤ ، وينظر أحمد مطلوب – معجم المصطلحات البلاغية، ج١، ص٤١–٤٥.

(٢) العلوي – الطراز ، ص١٣٣

(٣) القارعة : ١ – ٣

﴿ ٱلۡمَنفُوشِ ﴾ [١] إلى" بيان تأثير القرعة في الجبال وهو أنها صارت كالعهن المنفوش، فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها " [٢].

ومما يُلاحظ- أيضاً - تَقَدُّم صورة الناس على الجبال، ولعل السبب في ذلك أنهم الأعنى والأخص بالتشبيه وبالموقف، ودليل ذلك ما جاء بعد هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴾[٣]، فالإنسان هو المُكلف وهو المحاسب، وقد هُيئ الكون لخدمته ولمساعدته على أداء عباداته وأعماله، ولما انتهى وقت الاختبار الدنيوي، وجاء الحساب الآخروي زال سبب تسخير الكون، وتلاشى كل ما كان يتمتع به الإنسان من نعم، وكل ما كان يساعده على أداء مهمته، فالكون انتهى بانتهاء المهمة .

وقبل مغادرة هذا التشبيه تجدر الإشارة إلى أنَّ بعض التفاسير قد جمعت بين صورة (تشبيه الناس بالفراش) وصورة تشبيههم بالجراد المنتشر في قوله تعالى: ﴿ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴾[٤]، وانطلقت هذه

---

(١) القارعة : ٤-٥

(٢) الرازي - التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣٢ ، ص٧٣، وينظر: الأندلسي- البحر المحيط ، ج٨ ، ص٥٠٦.

(٣) القارعة : ٦ - ٩

(٤) القمر : ٧

التفاسير في جمعها بين الصورتين من تقاطعهما في أوجه الشبه وهي الكثرة والتتابع، ومن ذلك ما قاله ابن كثير: " يوم يكون الناس كالفراش المبثوث: أي في انتشارهم وتفرقهم ... كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾"[١]، وفي تفسير المراغي: " وجاء تشبيههم في آية أخرى بالجراد المنتشر في كثرتهم وتتابعهم فقال:﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾" [٢]، إلا أنَّ القرطبي وجد فرقاً بين تصوير الناس بالفراش والجراد وهو أنَّ الفراش لا جهة له بينما الجراد يعلم وجهته، يقول: " فأول حالهم كالفراش لا وجه له يتحير في كل وجه، ثم يكونون كالجراد ؛ لأن لها وجهاً تقصده " [٣]، وجاء في تتمة أضواء البيان: " إنَّ وصفها بالفراش في أول حالها في الاضطراب والحيرة، ووصفها كالجراد في الكثرة ووحدة الاتجاه (مهطعين إلى الداع)" [٤].

ويكشف التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ [٥] عن صورة الليل الساتر الذي تسكن إليه النفوس، جاء في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت ٣١١هـ) " أي تسكنون فيه وهو مشتمل عليكم " [٦] ، وعند الزمخشري: "

---

(١) ابن كثير– تفسير القرآن العظيم ،ج٤ ، ص ٥٤٣ .
(٢) المراغي– تفسير المراغي ، ج٣٠ ، ص ٢٢٦ .
(٣) القرطبي– الجامع لأحكام القرآن ، م٢٠ ، ص ١٦٥ .
(٤) الشنقيطي– أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ج٩، ص٢٥٣.
(٥) النبأ : ١٠
(٦) الزجاج – معاني القرآن وإعرابه ، ج٥ ، ص٢٧٢ .

يستركم عن العيون إذا أراد الإنسان هرباً من عدو، أو بياتاً له، أو إخفاء ما لا يحب الاطلاع عليه من كثير من الأمور " [١] ، وعند الرازي: " فكما أنَّ الإنسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته ويندفع عنه أذى الحر والبرد، فكذا لباس الليل بسبب ما يحصل فيه من نوم يزيد فيه جمال الإنسان وفي طراوة أعضائه، وفي تكامل قواه الحسية والحركية، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني، وأذى الأفكار الموحشة النفسانية، فإنَّ المريض إذا نام بالليل وجد الخفة العظيمة " [٢] .

وعند القرطبي " أي تلبسكم ظلمته وتغشاكم " [٣] ، وفي تفسير أبي السعود (ت٩٥١هـ) " وجعلنا الليل الذي يقع فيه النوم غالباً لباساً يستركم بظلامه كما يستركم اللباس، ولعل المراد به ما يستتر به عند النوم من اللحاف ونحوه،فإن شبه الليل به أكمل واعتباره في تحقيق المقصد أدخل، فهو جعل الليل محلاً للنوم الذي جُعل موتاً، كما جعل النهار محلاً لليقظة المُعبَّر عنها بالحياة في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا) أي وقت حياة تبعثون فيه من نومكم....وجعل النهار وقت التقلب في تحصيل المعايش " [٤].

---

(١) الزمخشري- الكشاف ،ج٤، ص٦٨٦ .

(٢) الرازي- التفسير الكبير، م١٦ ، ج٣١ ، ص٨ .

(٣) القرطبي- الجامع لأحكام القرآن ، م١٩ ، ص١٧٢ .

(٤) العمادي – تفسير أبي السعود ، ج٩ ، ص٨٧ .

ويلاحظ على المستوى التركيبي لهذا التشبيه، زيادة فعل الصيرورة (جعلنا) ، ففي زيادته أهمية دلالية، فهو يدلُّ – هنا – على تهيئة الكون سماءً وأرضاً وليلاً ونهاراً لينسجم مع الحاجات النفسية للإنسان الذي يحتاج إلى مَنْ يساعده على الراحة والسكون ولا يتحقق ذلك إلا بالليل .

ولننظر إلى اللوحة التي يرسمها التشبيه في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[1]، إنَّها لوحة مرسومة متخيلة تعبر عن شدة العذاب الذي ألحقه الله –عز وجل– بأصحاب الفيل الذين حاولوا هدم بيت الله الحرام .

والعصف: " ما كان على ساق الزرع من الورق الذي يتفتت: ويُعنى بالعصف: ورق الزرع وما لا يؤكل منه، والعصف: ما جُزَّ من ورق الزرع وعَصَفَه: صرمه من أقصابه "[2] ، جاء في الكشاف: " وشبهوا بورق الزرع إذا أُكل أي وقع فيه الأكال ، وهو أن يأكله الدود أو يتبن أكلته الدواب وراثته "[3]،

---

(١) الفيل : ٥

(٢) ابن منظور – لسان العرب ، م١٠ ، ص١٧٣ .

(٣) الزمخشري– الكشاف،ج٤، ص٨٠٦ ، وينظر : الأندلسي– البحر المحيط ، ج٨ ، ص٥١١ .

وعند القرطبي: " جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسفل، شَبهَ تقطُّعِ أوصالهم بتفرق أجزائه " [١] .

ففي هذا التعبير صورة حسيّة تختزن منظر التمزق البدني الذي أصاب أبدانهم حتى غدا كأنه ورق أكلته الحشرات وفتَّته، يقول سيد قطب في الظلال: "وهي صورة حسيّة للتمزيق البدني بفعل هذه الأحجار التي رمتهم بها جماعات الطير " [٢]، ويبرز دور زيادة (كاف التشبيه) في التركيز على عنصر التشابه الذي لا يصل إلى درجة التوحد، فلو قال (جعلهم عصفاً) لصاروا عصفاً فعلاً، وأما قوله تعالى: (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) تقريب لما صارت إليه أجسادهم من التهشم والتفتت، حتى يتخيلها الذهن وتقع في النفس موقع الخوف والرهبة من غضب الله، " فحضور الأداة أو غيابها يتصل بمفهوم المسافة بين طرفي التشبيه، حيث يبقي حضور الأداة على البعد أو الفضاء الفاصل بين الطرفين في تصنيف الموجودات" [٣] .

وبعد عرض بعض الصور التشبيهية في جزء عمّ، يمكن القول إنَّ في هذه الصور سمات أسلوبية أي علامات بارزة في التعبير القرآني على نحو ما

---

(٤) القرطبي– الجامع لأحكام القرآن ، م٢٠ ، ص١٩٩، وينظر : الألوسي– روح المعاني، م١٦، ج٣٠، ص٤٢٧.

(١) سيد قطب– في ظلال القرآن ، ج٣٠ ، ص٢٥٧

(٢) الأزهر الزناد – دروس البلاغة العربية (نحو رؤية جديدة) ، ص٢٣.

تَظهر من خلاله الدلالة بأبهى صورة، وأوجز عبارة، وآكد معنىً، ويمكن رصد هذه السمات من خلال تكرارها وتنوعها على طول السياقات المختلفة، ومنها:

١- بروز عنصر الاختيار في الصورة التشبيهية، وهذه ظاهرة بارزة تُميِّز الصورة القرآنية، فهي تستثمر برفق أقل ما يمكن من اللفظ لتوليد أكثر ما يمكن من المعاني، ولا يجاوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف، فهو ينتقي الألفاظ الجامعة المانعة، التي هي – بطبيعتها اللغوية- أتمُّ تحديداً للغرض، وأعظم اتساعاً لمعانيه المناسبة(١) ففي الصُّوَرِ التي درسناها سابقاً اختيار محكم للألفاظ وإيجاز قادرعلى نقل أحداث الموقف بكل تفصيلاته لتحقيق الأثر النفسي المرجوِّ من تلك المواقف، فلا نستطيع أن نستبدل ألفاظاً أخرى بهذه الألفاظ، ولو استطعنا لشعرنا بفتور المعنى وركاكة التعبير، فالألفاظ وافية بحق المعاني، شاملة لكل محيط الصور المرسومة .

٢- إنّ عناصر الصورة التشبيهية منتزعة من البيئة المرئية للإنسان، فهي تنماز باتكائها على عناصر مألوفة علمها الإنسان وأدرك حقيقتها، ومن ذلك (المهاد، والأوتاد، السراب، والعهن (الصوف)، والفَراش، واللباس، والعصف)، يقول بكري شيخ أمين: " ويستمد القرآن الكريم عناصره من الطبيعة من نباتها وحيوانها وجمادها كـ (نبات الأرض،

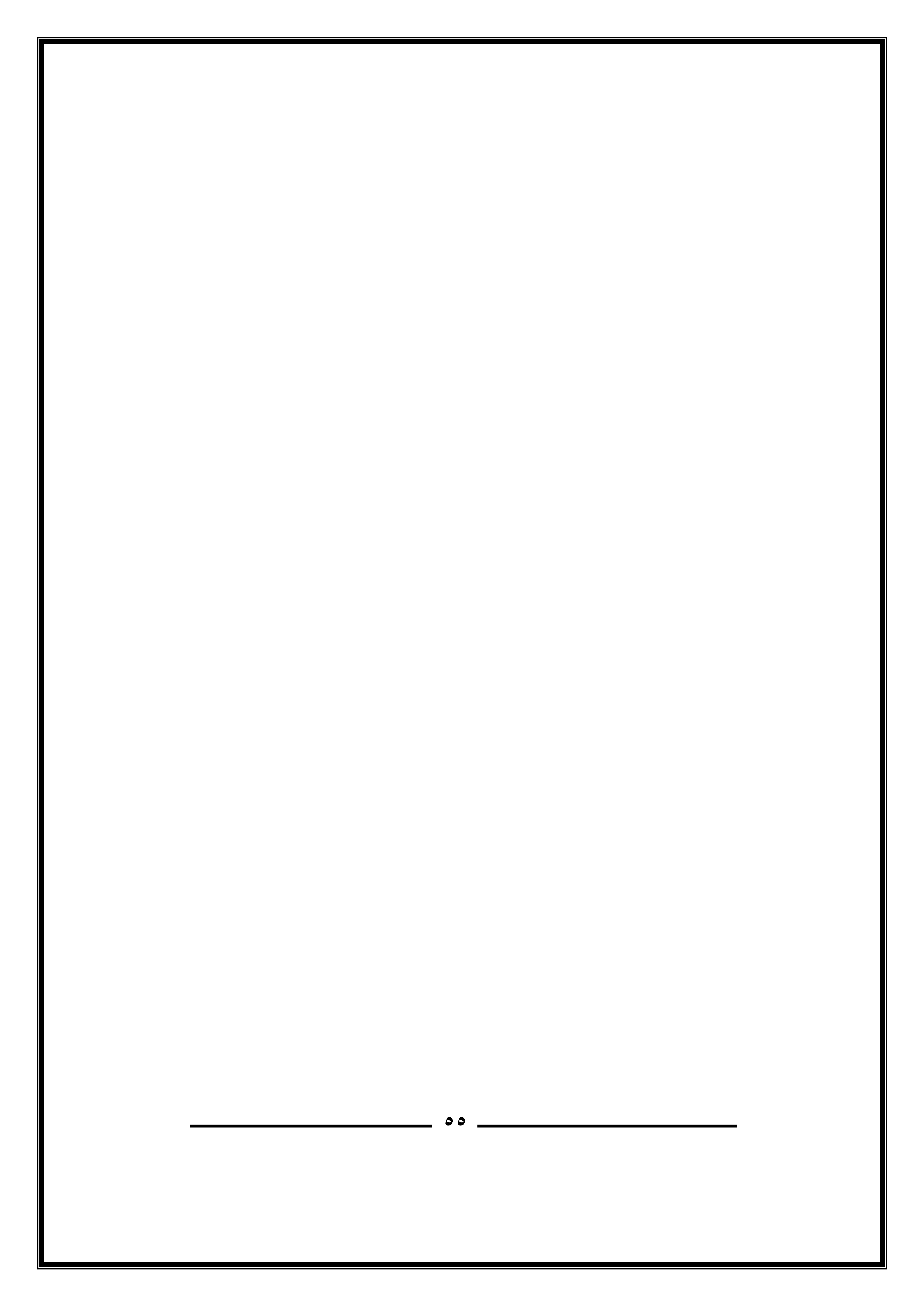
(١) ينظر: صلاح الدين عبد التواب- الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، ص١٤٠.

والعرجون، والعصف المأكول، والفراش، والعهن) .. والتشبيه ليس عنصراً إضافياً في الجملة، ولكنه جزء أساسي لا يتم المعنى بدونه، بل يتطلبه المعنى ليصبح قوياً " [١].

٣- تعدد أنواع التشبيه بتعدد الغرض المقصود، فالتشبيهات التي تناولناها- سابقاً- جاءت على نوعين: (مرسل مجمل، وبليغ)، ولاحظنا أنَّ القرآن الكريم إذا أراد أن يوهم اتحاد الطرفين، وعدم تفاضلهما بحيث يصل المشبه إلى مستوى المشبه به يستخدم التشبيه البليغ، فيكون في استخدامه مبالغة وقوة في التشبيه، مثل قوله تعالى: (وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا) وقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا)، وإذا أراد أن يقرب الصورة بين المشبه والمشبه به فقط استخدم التشبيه المرسل المجمل، إذ يفيد ذِكْر الأداة تقاربَ المشبه مع المشبه به مع عدم إلحاقه به، كما في قوله تعالى: (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) فهم يشبهون العصف وليسوا بعصف، ومن جهة أخرى يُلاحظ عدم ذكر وجه الشبه، لأنَّ في ذكره تقييداً للدلالة وحصرها في جهة واحدة، فهذه التشبيهات تجعل أوجه التشبيه مفتوحة؛ ليغترفَ منها المتلقي قدر ما يشاء .

(٢) ينظر : بكري شيخ أمين- التعبير الفني في القرآن ، ص١٩٤ – ١٩٥ .

٤- دور فعل الصيرورة (جعل) والكينونة (كان) في توجيه الدلالة، فعندما يُراد الوصول بالتشبيه إلى درجة الحقيقة يُستخدم فعل الكينونة، كما في قوله تعالى: (وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا)، في حين يستخدم فعل الصيرورة (جعل) ؛ للدلالة على الهيئة والتحويل، كما في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا).



الفصل الثاني

الصورة المجازية

يقع المجاز عند استخدام الكلمة في غير ما وُضعت له لعلاقة ما، مع قرينةٍ مانعة من إيراد المعنى الأصلي، يقول عبد القاهرالجرجاني: " فإذا عدل اللفظ عمّا يوحيه أصل اللغة وُصف بأنه مجاز، على معنى أنَّهم جازوا موضعه الأصلي ، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً " [١] ، وعند السكاكي (ت٦٢٦هـ): " الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق ، استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى في ذلك النوع " [٢].

ويأتي المجاز على نوعين: لغوي وعقلي *، فأما اللغوي فمجاز عن طريق اللغة يقع في الكلمة المفردة، ومنه: الاستعارة والمجاز المرسل، وأمَّا المجاز العقلي فيأتي من طريق المعنى والمعقول، وتوصف به الجمل في التأليف والإسناد " [٣]، وإليك تفصيل هذه الأنواع .

---

(١) الجرجاني – أسرار البلاغة ، ص٤٨٥ .

(٢) السكاكي– مفتاح العلوم ، ص ٤٦٨ .

* المجاز العقلي أو الحكمي ذُكر في باب المعاني ، وذكر في باب البيان ، فآثر الباحث ضمه إلى البيان لاتصاله بباب المجاز العام .

(٣) ينظر: الجرجاني– أسرار البلاغة ، ص ٤٩٩ .

أولاً: الصورة الاستعارية

تبدو الصورة الاستعارية واحدة من أهم مراتب العملية التصويرية المتعلقة بالمجاز، والاستعارة في اللغة " نقل الشيء من شخص لآخر، يقال: استعار فلان سهماً من كنانته:أي رفعه وحوّله من يده " [١]. وأما اصطلاحاً فقد عرَّفها ابن المعتز (٢٩٦ هـ): " استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عُرف " [٢]، وعند القاضي الجرجاني (٣٦٦هـ): " ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقل العبارة فجعلت في مكان غيرها وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر" [٣]، وعرَّفها الآمدي (٣٧٠ هـ) بقوله: " إنَّما استعارت العرب لما ليس له إذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذٍ لائقة بالشيء الذي استعيرت له ملائمة لمعناه " [٤] .

وعند العسكري: (ت ٣٩٥ هـ) " نقلُ العبارةِ موضعَ استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين

---

(١) ينظر: ابن منظور– لسان العرب ، م١٠ ، ص٣٥٠ .
(٢) ابن المعتز– البديع ، تح :كراتشفوفسكي ، ص٢ .
(٣) القاضي الجرجاني– الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص٤١.
(٤) الآمدي– الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، ج١ ، ص٢٦٦.

المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة، ولولا أنَّ الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة، لكانت الحقيقة أولى ههنا استعمالاً " [١]، وعند عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): " اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً تدل الشواهد على أنه اختصَّ به حين وضع، ثمَّ يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون فيها كالعارية " [٢]، وأما القزويني (ت٧٣٩هـ) فعرَّفها بقوله: " هي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له " [٣] .

ومن تعريفات الاستعارة أيضاً: " نقلُ اللفظِ من معناه الذي عُرف ووضع له إلى معنى آخر لم يُعرف به من قبل " [٤] ، أو هي " ضربٌ من المجاز اللغوي وهي تشبيه حُذف أحد طرفيه أو انتقال من بيئة لُغوية معينة إلى بيئة لغوية أخرى، وعلاقتها المشابهة دائماً " [٥]، ويلاحظ – بعد هذا العرض – لتعريفات الاستعارة أنَّها تدور في فلك واحد، فالمتكلم يستعير لفظة المشبه به كي يستعملها للدلالة على المشبه، ثم يرجعها إلى مجالها الأصلي.

---

(١) العسكري– الصناعتين ، ص٢٦٨.

(٢) الجرجاني– أسرار البلاغة ، ص٤٤.

(٣) القزويني– الإيضاح في علوم البلاغة ،ج٢، ص٤٠٧.

(٤) فضل حسن عباس– البلاغة فنونها وأفنانها ، ص١٦٣.

(٥) يوسف أبو العدوس– مدخل إلى البلاغة العربية ، ص١٨٦.

وأما عن نظرة الأسلوبية للاستعارة فترى فيها " اعتداءً وجرحاً لشفرة اللغة أي انحرافاً عن الاستخدام اللغوي " [(١)]، وهي من قبيل الانزياح المتعلق بجوهر المادة اللغوية، الذي أسماه جان كوهن بـ (الانزياح الاستبدالي)، حيث تمثل الاستعارة عماد هذا الانزياح " فالمنبع الأساسي لكل شعر هو مجاز المجازات هو الاستعارة " [(٢)]، ومن شأن هذا الانحراف أو الانزياح أن يشدَّ ذهنَ المتلقي، وأن يثير حركة في النص تنفي الرتابةَ عنه، بصورة خلابةٍ جذابةٍ تنشرُ في النفس جوًّا من المتعة والجمال .

ورأت الأسلوبية أنَّ الاستعارة تعطي اسماً لواقع لم يُسمَّ من قبل، وقد تقوم بكسر حاجز اللغة وقول ما لا يُقال عن طريقها [(٣)]، فالاستعارة بحد ذاتها تكثيف يُعمد فيه إلى الاتِّساع في الدلالة، واللجوء إليها في التعبير ليس انتقاصاً من قدرة اللغة، وإنما رغبة في التوسّع[(٤)] .

وترتكز الاستعارة في أصلها على أساس من التشبيه، فالتشبيه يقوم على أصلين: المشبه والمشبه به، أما " الاستعارة فإنها تعتمد على تناسي التشبيه وادعاء أنَّ المشبه هو المشبه به نفسه، وإذا كان التشبيه يأتي لبيان المعنى وإيضاح الفكرة، فإنَّ الاستعارةَ أكثرُ ما تكون تُستعمل في القوة، وشدة

---

(١) صلاح فضل- نظرية البنائية في النقد ، ص٣٥٦.
(٢) جان كوهن- بنية اللغة الشعرية ، ص٤٢ .
(٣) ينظر : صلاح فضل- علم الأسلوب (مبادئه وإجراءاته) ، ص٢٢٤.
(٤) ينظر : صبحي البستاني- الصورة الشعرية في الكتابة الأدبية ، ص٩٩.

التأثير في السامعين " [1]، على أن الفرق في البنية الأسلوبية لكل من الصورة التشبيهية والصورة الاستعارية لا يفرض بالضرورة فرقاً أدائياً في القدرة على التعبير، وقيمته الفنية، فلكل واحدة من هذه الصور قيمتها وأثرها في نقل المعنى المطلوب *.

ومن الصور الاستعارية قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ [2] إذ اشتملت الآية على استعارة مكنية، فذكر المشبه وهو (الكواكب) وحذف المشبه به (الجواهر) مع ذكر شيء من لوازمه وهو (النثر)، ويلاحظ براعة الاختيار في اختيار لفظة (انتثرت) ذلك لما حملته من معاني (التشتت ، والتفرق، والتبعثر) وشدة خروج الكواكب عن بروجها وأماكنها، فالتفرق الذي هو حقيقته النثر من حيث جنس المعنى وعمومه موجود في المستعار له .

وجاء ترتيب هذه الاستعارة مع الآية التي قبلها والآيات التي تليها في غاية الدقة والنظام ، لاحظ قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [3] .

(١) محمد شعبان علوان – من بلاغة القرآن (المعاني – البيان – البديع) ، ص٢٠٨.

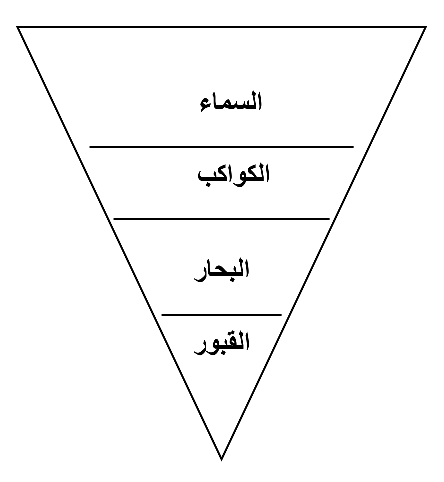
* يمكن الرجوع إلى الصورة التشبيهية في الكتاب نفسه ؛ للوقوف على أهمية هذه الصورة في نقل الدلالات المُرادة حالها حال الصورة الاستعارية ص٢٧ وما بعدها .

(٢) الانفطار : ٢

(٣) الانفطار : ١– ٤

فالبداية كانت في تشقق السماء ، ولنتخيل هذه السماء كالثوب المزين المرصع بالجواهر ، فعندما يُشق الثوب يقع ما كان عليه من حلي أو زينة ، فبعد أن انشقت السماء ذهبت زينة تلك السماء فتناثرت الكواكب بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ ، فالنجوم والكواكب زينة السماء .

ويمكن تمثيل هذه الآيات على الشكل الآتي:-



فمظاهر الانقلاب الكوني بدأت بالسماء وانتهت بالقبور بشكل تنازلي من أوسع شيء (السماء) إلى أضيق شيء (القبر) ، فضلاً عن عنصر الحركة الذي نلمحه في الصورة والمتجسد في الأفعال (انتثرت ، وانشقت ، وفجرت ، وبعثرت) ، وجمال هذه الاستعارة يتأتى من أنها تصور المعنى للسامع تصويراً مؤثراً في النفس فيقرُّ في الأذهان مع نوع من الإيجاز والقوة .

وفي قوله تعالى ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (١) وقعت الاستعارة التصريحية في لفظة (مطهرة) ، إذ شبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارتها من الأنجاس (٢)، واللطيف في هذه الاستعارة مجيئها بعد الآية الأولى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (٣)، فالكفر والشرك دنس ونجس، فجاء النبي- صلى الله عليه وسلم- وهو المقصود بالبينة (٤) ليدحض الباطل بما جاء به من دلائل ومعجزات، فجاء بالقرآن الكريم ذي الأحكام القويمة التي لا عوج فيها ولا باطل، والتي تليق بجلال مشرّعها سبحانه، فأبرزت الاستعارة المفارقةَ الشاسعةَ بينَ أهلِ الكفرِ وما هم عليه من ضلال ونجس، وسيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- وما في معجزته من ضياء ونور وطهر.

وتظهر الصورة المفعمة بالحيوية في قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾(٥) وتنفس هنا مستعار له، وحقيقته إذا بدأ انتشاره وتنفس أبلغ منه ومعنى الابتداء فيهما، إلا أنه في النفس أبلغ لما فيه من الترويح عن النفس ، يقول

---

(١) البيّنة : ٢

(٢) ينظر: الصابوني – صفوة التفاسير، القسم العشرون، ص٨٨ .

(٣) البيّنة : ١

(٤) ينظر: القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ،ج٢٠، ص ١٤٣ .

(٥) التكوير: ١٨

الزمخشري: " (فإن قلت) ما معنى تنفس (قلت): إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفساً له على المجاز " [1] .

وفي اختيار لفظة (تنفس) دلالة واضحة على روعة الانتقاء، فالنَفَس مؤشرٌ على حياة الأرض ومن عليها وقد سبقت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [2] ، ففي الليل تموت الحركة وتنتظم الأنفاس إذْ الهدوء قائم والضجيج نائم، فإذا جاء الصبح صحت النفوس والأنفاس من جديد . فبلاغة هذه الاستعارة تتمثل فيما حملته لفظة تنفس من ايحاءات وإثارات وما ينطوي تحتها من انفعالات وروح تبث في النفس حيوية وقوة، وتُوسع – أيضاً– من رقعة الإحساس بالصورة المرسومة .

وانظر إلى عظم الاستعارة في قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ [3] فمع ما فيها من روعة التعبير ودقة التصوير تجد فيها ما يهزُّ النفس ويرعب القلب ؛ لما حملته من معاني التمركز والكثرة والتنوع في العذاب، من خلال الفعل (صبَّ) وكلمة (سوط)، فالفعل (صبَّ) يختزن دلالات الإراقة الكثيرة، والانهمار الشديد للعذاب، والغزارة وتمركزها على رأس المُعذَّب، وسوط: تختزن معاني الشدة والألم، وذكر السوط " إشارة إلى أن ما أحلَّه بهم في الدنيا

---

(١) الزمخشري– الكشاف ،ج٤، ص ٧١١.
(٢) التكوير :١٧
(٣) الفجر : ١٣

من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدَّ لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به " [١] ، والتعذيب بالسوط نهايةُ كل ما يُعذب به وأشدُّه [٢] .

وما كان هذا العذاب إلا جزاءً وفاقاً، فكان الجزاء من جنس العمل، قال تعالى - قبل الاستعارة السابقة -: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ [٣] ، فالطغيان ومجاوزة الحدِّ في المعاصي والظلم والعتو عن أمره - عز وجل - لزمه عذاب شديد يتناسب مع تلك الأعمال، ففي العمل تجاوز وطغيان وفي الجزاء تجاوز عن الحد المألوف أيضاً .

ويُلاحظ في هذه الاستعارة تقديم شبه الجملة (عليهم) على الفاعل (ربك)، وفي هذا التقديم سرعة في العذاب، وصبٌّ مباشرٌ وسريع لا برودَ فيه ولا تقطع، واختصاص العذاب بهم ؛ لتغدوَ هذه الاستعارة درساً قاسياً لكل مَنْ تحدثه نفسُه بالظلم والفساد في الأرض، فهي تبعث في النفس أضعافاً من الألم والخوف .

---

(١) الزمخشري- الكشاف ،ج٤، ص ٧٥٢.
(٢) ينظر : القرطبي- الجامع لأحكام القرآن ، م٢٠ ، ص٤٩ .
(٣) الفجر : ٦- ١٢

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾[1] قولان : قول يَعُدُّ هذه الآية على وجه الحقيقة بمعنى أنها كانت تحمل الحطب على وجه الحقيقة، " قال قتادة وغيره : كانت تعيّر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالفقر ، ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيّرت بالبخل "[2] .

وقولٌ يَعُدُّ هذه الآية من باب الاستعارة التمثيلية ، حيث تُقال لمن يمشي بين الناس بالنميمة ، وهي استعارة مشهورة عند العرب في أقوالهم وأشعارهم .

وجاء اختيار هذه الاستعارة مناسباً لورود لفظتي (النار – ذات لهب) ففي الآية التي تسبقها والمتضمنة جزاء زوجها أبي لهب ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾[3] فرفعت امرأته عطفاً على الضمير في سيصلى: أي سيصلى هو وامرأته [4] النارَ الملتهبة، فليس العطف وحده ما جمع بينهما، بل العلاقة الجليّة بين الألفاظ (نار + ذات لهب + حطب) فكأن أبا لهب وزوجه عنصران تشتمل عليهما النار، فجُمعت الزوجة مع زوجها في " نار جهنمَ على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمةُ

---

(١) المسد : ٤ ، والمقصود أم جميل (العوراء) بنت حرب أخت أبي سفيان زوجة أبي لهب (ينظر: الصابوني – صفوة التفاسير ، القسم العشرون ، ص١١٨) .
(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، م٢٠ ، ص٢٤٠ .
(٣) المسد : ٣
(٤) الزمخشري– الكشاف ،ج٤، ص ٨٢١ .

حطبِ النارِ من شجرة الزقوم، وفي جيدها حبلٌ من مسد من سلاسل النارِ، كما يُعذب كل مجرم مما يُجانس حاله مع جرمه " [1] .

كما أوحت الاستعارة بأنَّ جنس العذاب كان من جنس العمل، كونها حملت الشوك والحطب فوضعته في طريق رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وزادت الاستعارة في الحطِّ من قيمة سيد مِنْ قريش وزوجته عندما شبهت " بصورة الحطَّابات من المواهن؛ لتمتعضَ من ذلك ويمتعض بعلُها، وهما في بيت العزِّ والشرف، وفي منصب الثروة والجدة " [2] .

ثانياً : المجاز المرسل

يُعرف المجاز المرسل بأنَّه " ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه، كاليد إذا استعملت في النعمة، وكالراوية للمزادة مع كونها للبعير الحامل لها " [3]، أو هو " الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي ؛ لملاحظة علاقته غير المشابهة، مع قرينةٍ دالَّةٍ على عدم إرادة المعنى الوضعي " [4]، وسمي المجاز المرسل مرسلاً ؛ " لأنَّ العلاقة فيه ليست

---

(١) الزمخشري– الكشاف، ج٢٣، ص٨٢٢ .

(٢) الزمخشري– الكشاف، ج٤، ص٨٢١، وينظر : الألوسي– روح المعاني، م١٦، ج٣٠، ص٤٧٤.

(٣) القزويني– الإيضاح في علوم البلاغة،ج٢، ص٣٩٧ .

(٤) أحمد الهاشمي– جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، ص٣١٩–٣٢٠ .

محصورة في واحدة بعينها، وإنمّا أطلقت وأرسلت، وأصبحت تشمل أكثر من جهة " (١) .

ويختلف المجاز المرسل عن الاستعارة في العلاقة، فالأول قائم على علاقة غير المشابهة، أما الثانية فقائمة على علاقة المشابهة، ويحقق المجاز فوائد كثيرة، فهو يصور المعنى المجازي المراد خير تصوير وأدقه، ويؤكد المعنى في النفس ويقره، لما فيه من دعوى الشيء بالبينة والبرهان، ويوجز في الألفاظ مع تأدية المعنى المراد، و" تتحقق هذه الفوائد من العلاقات القائمة على التلازم الذهني، فالسبب والمسبب متلازمان ذهنياً وزمانياً، وكذلك الأمر في الكل والجزء والحال والمحل " (٢) .

وللمجاز المرسل -عند الأسلوبيين- دورٌ نشِطٌ في تكوين الصور الأدبية، فليست الاستعارة الشكل المجازي الوحيد الذي يضيف عنصراً محدداً للمستوى الإشاري، بل إنَّ بعض الصور لا تتم إلا من خلال عمليات المجاز المرسل، إما باعتبارها أساس الصورة، وإما باعتبارها الدعامة التي تثيرها عندما تضع شيئاً متعيناً مكان شيء مجرد، مثل التعبير عن الملكية بالعرش(٣).

---

(١) يوسف أبو العدوس- مدخل إلى البلاغة العربية ، ص١٧٤.
(٢) عبد الفتاح لاشين- البيان في ضوء أساليب القرآن ، ص١٦٠ – ١٦١.
(٣) ينظر : صلاح فضل – علم الأسلوب (مبادئه وإجراءاته) ، ص٢٢٢ .

ومن الصور المجازية في جزء عمّ، قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ (١)، يقول القرطبي (٦٧١هـ): "والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه " (٢)، فهو بذلك مجاز مرسل علاقته الجزئية، فذكر الجزء (الوجه) وأراد الكل(الإنسان)، وجاء اختيار الوجوه ؛ لأنها أشرف ما في خلق الإنسان من جهة، ومن جهةٍ أخرى قدرة الوجه على إعطاء المرء هويته، فهو أوضح بصمة في الإنسان وعليه تظهرُ ملامح فعل الزمن، وعلامات الحياة وأحوالها من (فرح وترح، وغنى وفقر، و...) فالوجه يحمل التعابير والأحاسيس الداخلية، يقول الرازي(ت ٦٠٦هـ):" لكن الخشوعَ يظهر في الوجه، فعلقه بالوجه لذلك " (٣)، فصورة وجه المؤمن الناعمة الناصعة تنقل إلى المتلقي فرحته بداره ونعيمه، وترسل إلى المتلقي ما يشعر به المؤمن من السعادة الغامرة، بعكس وجه الكافر الذي يحمل بشارات الخزي والعار فوجهه مُسْوَدٌّ كالح، يحمل كلَ علامات الذلة والهوان والخوف والندم .

وفي كلمة (خاشعة) كسرٌ للتوقع، فقد يظن القارئ عند قراءته قوله تعالى: (وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ) أنَّ المقصود هم المؤمنون الذين خشعت وجوههم وتذللت لله في الصلاة وغيرها من العبادات، إلا أنَّ قوله تعالى بعد هذه الآية: (عَامِلَةٞ

---

(١) الغاشية :١-٢
(٢) القرطبي- الجامع لأحكام القرآن ، م٢٠، ص٢٦ .
(٣) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج ٣١ ، ص١٥١ .

﴿نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ ينفي قطعاً علاقة هذه الآية بخشوع الصلاة أو خشوع المؤمنين لله، فالآية مختصة بالكفار حيث بيَّنت الآيات حال الوجوه " الخاشعة الذليلة المتعبة المرهقة التي عملت ونصبت، فلم تحمد العمل ولم ترضَ العاقبة، فلم تجد إلا الوبال والخسارة، فزادت مضضاً وإرهاقاً وتعباً " [(١)]، فكلمة خشوع ذات دلالات مشتركة، لكنها في الوقت نفسه تختلف باختلاف السياق القرآني، فالخشوع تذلل وانكسار وانخفاض وخضوع، انظر قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [(٢)] أي انخفضت من شدة الخوف، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [(٣)] بمعنى متذللين ومستسلمين لله، وقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [(٤)] " وخشوع البصر هيئة النظر بالعين بذلةٍ وخوف " [(٥)].

فالخشوع نوعان: خشوع إيجابي ذاتي ويكون للمؤمن الذي تذلل واستسلم لربه طائعاً راغباً طمعاً في نيل رضى الله -عز وجل- ونعيمه، وخشوع

---

(١) سيد قطب – في ظلال القرآن ، ج٣٠، ص١٤٥.
(٢) طه : ١٠٨
(٣) المؤمنون : ٢
(٤) القلم : ٤٣
(٥) ابن عاشور– التحرير والتنوير، ج٢٩، ص١٠١.

سلبي قصري ويكون للكافر ومنبعه شعوره بالخزي والعار والمهانة لما اقترفه في دنياه من المعاصي والذنوب .

وانظر إلى تخصيص الموقف بالزمن (يومئذٍ)، فنعومة الوجوه أو خشوعها مختص بذلك اليوم، فقد يكون حالها مخالفاً للحال الذي كانت عليه في الدنيا، يقول فاضل السامرائي: " فإن نضرة أصحاب النعيم خاصة بذلك اليوم، أما في الدنيا ربما لم تعرف وجوههم النضرة، وكذلك أصحاب الوجوه الباسرة، فإنَّ البسور مختصٌ بذلك اليوم، وربما كانت وجوههم من أنضر الوجوه في الدنيا " [(١)] .

ومن المجاز المرسل ذي العلاقة الجزئية قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [(٢)]، فأطلق (اليد) وأراد (نفسه ، كله) ، يقول الزمخشري (ت٥٣٨هـ) في تفسير هذه الآية: " وهلك كله أو جعلنا يديه هالكتين، والمراد هلاكُ جملته، كقوله تعالى: (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ)" [(٣)]، ويقول البيضاوي (ت٦٩١هـ): (تبت يدا أبي لهب) أي: نفسه [(٤)] ، فهذه الأقوال دالَّة على ما في

---

(١) فاضل صالح السامرائي- لمسات بيانية ، ص٢١٩.
(٢) المسد : ١
(٣) الزمخشري- الكشاف ، ج٤، ص٨١٩ .
(٤) البيضاوي – تفسير البيضاوي ، ج٥، ص٣٤٥ .

الآية من مجاز ، وأنَّ المقصود بالهلاك هو أبو لهب نفسه ، والتساؤل هنا: لِمَ اختيرت اليدُ وخُصت بالمجاز ؟ .

يقول القرطبي في الجامع: " وخصّ اليدَ بالتباب ؛ لأن العملَ أكثر ما يكون بهما أي خسرتا وخسر هو ، وقد يُعبَّر عن النفس باليد ، كما قال الله تعالى : (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ) أي نفسك ، وهذا مهيع كلام العرب ، تُعبر ببعض الشيء عن كله تقول: أصابته يد الدهر ، ويد الرزايا والمنايا ، أي أصابه ذلك [1] ، وانطلاقاً من قول القرطبي بأنَّ العمل يكون بهما، يلوح في الأفق تلك الأعمال التي كان يقوم بها أبو لهب، فقد كان يجمع الحجارة ويرميها على شخص رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وما يكون الرمي إلا باليد [2] ، وقد قرنت زوجته بالعذاب، إذْ كانت تجمع الشوكَ وتضعه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم .

فاليدان أداتا الفعل الإنساني وتبُّ اليدين أوقعُ في النفس من الموت، فالموت مآل كل حي، أما قطع اليدين مع النظر إليهما فأوجعُ وآلم ؛ لأنه يعي ويعاني ألم الانقطاع والعجز مع وجود عقل يعاني شدة الألم، بل إنَّ هذا المجاز قد يكون حقيقة واقعة في الآخرة يظل يقاسيها أبو لهب جرّاء ما فعلت يداه حين طاوعته على إيذاء سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) القرطبي– الجامع لأحكام القرآن ، م٢٠ ، ص٢٣٥ – ٢٣٦ .

(٢) ينظر : الرواية المذكورة في تفسير القرطبي ، م٢٠ ، ص٢٣٦ .

فهذا من باب الجزاء من جنس العمل، فتلك الأيدي التي جابهت الرسول وأصحابه تجابه النار، وتُحرَّق جزاءً وفاقاً ، والآية وإنْ كانت في أبي لهب فهي عِظة للناس ، وتهديد لمن يؤذي غيرَه أو يمنع غيره عن القيام بالطاعات والعبادات .

وفي قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ [١] مجاز مرسل علاقته المحلية، فأطلق المحل وأراد الحالّ " والنادي في كلام العرب: المجلس الذي ينتدي فيه القوم: أي يجتمعون للحديث " [٢] ولا يسمّى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله ، وسمي نادياً أيضاً ؛ لأنَّ القوم يندون إليه نداً وندوةً ومنه دار الندوة بمكة ، وقيل: سمي نادياً ؛ لأنه مجلس الندى والكرم، ذكر على سبيل التهكم ، أي اجمع أهل الكرم والدفاع في زعمك لينصروك [٣] . والمقصود أبو جهل الذي كان يفتخر بمجلسه وعشيرته، فقد روي في الخبر أن النبي- صلى الله عليه وسلم- لما قرأ هذه السورة وبلغ قوله تعالى:(كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ) قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عن ربك، فقال الله تعالى:(فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ

---

(١) العلق : ١٧

(٢) الزمخشري – الكشاف ،ج٤، ص٧٨٤.

(٣) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣٢، ص٢٦.

ٱلزَّبَانِيَةَ) وهم ملائكة غلاظ، فلما سمع بذكرهم رجع فزعاً [1]، وهذا ما تناقلته أغلب التفاسير[2] حول هذه الآية .

ويجسد المجاز – هنا – عقاب من يُجابه الله ورسوله، فأبو جهل يستنصر بأصحابه، والله يدعو الزبانية الغلاظ الشداد، ومحصلة الأمر غلبة الزبانية فهم شداد يفعلون ما يؤمرون.

ومن شأن المجاز في هذه الآية الكشف عن صغر المخاطب والاستخفاف به، فكأنه قيل له (ليدع كل من يستنصر به من أهله وأقربائه وأحجار آلهته) فهو يدعوهم ولن ينصروه من دون الله، بل سيعذب بالزبانية، ولن يردع أحد ناديه ومن فيه الملائكةَ المأمورة بالاستمرار في عذابه وعقابه، وهذا ما لم يؤده التركيب لو وقع على الحقيقة، بالاقتصار على دعوة أهل النادي فقط .

ومن المجاز المرسل ذي العلاقة الحالّية، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [3] فالمُراد بالنعيم (الجنة) وبالجحيم (النّار)، حيث " يخبر تعالى – في هذه الآيات – عمّا يصير الأبرار إليه من النعيم وهم الذين

---

(١) ينظر : القرطبي– الجامع لأحكام القرآن ، م٢٠ ، ص١٢٦ – ١٢٧ .
(٢) ينظر: الأندلسي– البحر المحيط ، ج٨ ، ص٤٩٢ ، والبيضاوي – تفسير البيضاوي، ج٥ ، ص ٣٢٦، وابن كثير– تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص٥٢٨ .
(٣) الانفطار :١٣–١٤

أطاعوا الله عز وجل، ولم يقابلوه بالمعاصي ... ثمَّ يذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم " [1].

ويبرز دور المجاز في التعظيم من أمر الجنة والتهويل من أمر النار، فكأنَّ النعيم يحلُّ فيها ولا يرتحل زيادةً في وصف جمال الجنة، وكذلك الجحيم في النار يحل ولا يرتحل، زيادةً في وصف النار الحارقة، ففيها إيجاز قصر يُوسع من دائرة المعاني والدلالات، فالتكثيف في كلمة نعيم التي حملت كل ألوان النعيم وأشكاله من (راحة النفس وسكونها ، وطعام لذيذ ، وشراب لذة للشاربين ، وحور عين ... إلخ) ، بينما حملت كلمة جحيم كل أنواع الشقاء (طعام من الشوك، وماء شديد الحرارة يقطع الأمعاء، واضطراب نفسي، وصراخ وألم ... إلخ) .

فالتلازم الذهني بين الحالِّ والمحل يُعمِّقُ من المعنى ويؤكده ويقره في النفس أيَّما إقرار، ومما يلاحظ أن جماليات المجاز المرسل تتحقق من خلال الحذف الذي يوحي بالبحث عن نوع العلاقة ، أو من خلال اختزان الكلمة في المجاز للدلالات المتعددة.

---

(١) ابن كثير– تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص٤٨٣ .

ثالثاً: المجاز العقلي (الحكمي)

يُعرف المجاز العقلي بأنّه " إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول، وللفعل ملابسات شتى يلابس الفاعل، والمفعول به، والمصدر، والزمان، والمكان، والسبب " [(١)].

ولا يقع المجاز العقلي(الحكمي) في الكلمة نفسها ؛ لأن الكلمة فيه لا تخرج عن وضعها اللغوي، وإنما يكون في الإسناد، كإسناد الفعل أو ما في معناه (اسم فاعل، واسم مفعول إلى غير ما هو له)، وله علاقات متعددة مثل: (السببية، والمكانية، والزمانية، والمفعولية، والفاعلية .. إلخ) [(٢)] .

ومن المجاز العقلي في الجزء، قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [(٣)]، أي: " عيشة ذات رضىً يرضاها من يعيش فيها، وقال قوم: معناه مرضيّة " [(٤)] ، وجاء في الجامع لأحكام القرآن: " أي عيش مرضي ، يرضاه صاحبه، وقيل " عيشة راضية " أي فاعلة للرضا وهو اللين والانقياد

---

(١) القزويني – الإيضاح ،ج١، ص٩٨.

(٢) ينظر : فضل حسن عباس– البلاغة فنونها وأفنانها ، ص١٤٣، وينظر : الهاشمي– جواهر البلاغة ، ص٣٢٤-٣٢٥.

(٣) القارعة : ٧

(٤) الزجاج – معاني القرآن وإعرابه ، تح : عبد الجليل شلبي ، ج٥ ، ص٣٥٥ .

لأهلها فالفعل للعيشة ؛لأنها أعطت الرضى من نفسها ، وهو اللين والانقياد ... بذلاً وسماحةً " [1] .

وعلى هذا فإنها تحتمل قولين ، الأول: المجاز العقلي بمعنى (عيشة مرضية) ، والثاني: الحقيقة بمعنى أن العيشة نفسها راضية . فنرى في التفاسير حْملَها هذين القولين، دون ترجيح أحدهما على الآخر إلا في تفسير الشنقيطي (ت١٣٩٣ هـ) فقد أخذ بصحة القول الثاني صراحة عندما قال: "هو إسناد حقيقي من إسناد الرضى لمن وقع منه أو قام به ... لأن العيشة ليست محلاً لغيرها بل هي حالَّة ، والمحل الحقيقي هو الجنة والعيشة حالّة فيها، وهي اسم لمعاني النعيم، فيكون حمل الإسناد على الحقيقة أصح " [2] .

وقوله (أصح) اعتراف بشرعية القول الأول ، ولكنه يؤثر القول الثاني على الأول ، ويرى الباحث أنَّ كلا الرأيين صحيح لا كفة لأحدهما على الآخر ، وحجته في ذلك النظر في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ﴾[3] ، فإنَّ مَن ثقلت موازينه مرضيٌّ عن أعماله التي أدخلته الجنة، تلك الجنة الراضية عمّن فيها من الصالحين، المرضية من ربها لما فيها من أنهار، وثمار وشراب ... إلخ، فالكل راضٍ ومرضيّ عنه من الله –عز وجل – فبالقولين نعيش أجواء الرضى، فالجو كله رضى، يقول سيِّد قطب رحمه الله: " ويدعها مجملةً بلا

---

(١) القرطبي– الجامع لأحكام القرآن ، م٢٠ ، ١٦٦ .
(٢) الشنقيطي : تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ج٩، ص٢٥٤.
(٣) القارعة : ٦

تفصيل، توقع في الحس ظلال الرضى " [1]، فثمّة علاقة انسجام بين الجنّة ومكوناتها ومسخراتها للإنسان المؤمن، وبين الإنسان والخالق، فالكل راضٍ عن الآخر والكل مرضي عنه، مع فارق أنّ رضى الله – عز وجل – أعظم وأرجى وأوسع .

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[2] إنَّها تماثل إلى حدٍ كبير أجواء الرضى في الآية السابقة، فهذه النفس رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبيَّاً ، فاختارت الرضى بما يستدعي رضى الله، فأوقع الله – عز وجل – رضاه على عبده ، فحصد العبد رضىً مناسباً لفعله، ويقابل تلك الأجواء أجواء عدم الرضى من الكافر الخاسر الذي لا يشعر بالرضى عن أفعاله ، فماذا يقول لسان حاله ؟ ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [3] ؛ لكي يرضى كالآخرين من أهل الجنة ، ولكن هيهات هيهات أن يلحق بأفواج الصالحين !!! فباب التوبة قد أُغلق .

---

(١) سيد قطب – في ظلال القرآن ، ج٣٠ ، ص١٦٥ .
(٢) الفجر : ٢٨
(٣) الفجر : ٢٤

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ (١) مجاز عقلي علاقته المكانية حيث أسند الإخراج إلى الأرض مجازاً، لأن" المخرج الحقيقي هو الله– سبحانه وتعالى – والأرض مكان للإخراج " (٢) . ويبرز جمال المجاز في هذه الآية إصابتها المعنى ؛ ذلك أنَّ الأرض تُخرج ما في بطنها طواعية لله تعالى مما يورد قوة في المعنى، وعدم لفت الانتباه إلى الفاعل؛ يوجه الأنظار صوبَ الحدث نفسه، فالمراد النظر في هول الصورة، حيث تُخرج الأرض ما فيها بسرعة دون تردد أو تمهل مع شدة وقوة في الفعل.

وقد يقول قائل إنَّ المعنى في هذه الآية حقيقي لا مجاز فيه ؟ والحق إنَّ هذه الصورة ستقع على الحقيقة، بمعنى أن الأرض ستخرج ما في بطنها من أموات أو دفائن يوم القيامة، ولكن دراسة هذه الآية من منظور المجاز العقلي يمنح الفعل قوة في الإخراج وسرعة، بحيث ينتبه المتلقي الى هذا الحدث دون الانتباه الى الفاعل ودليل ذلك الآية التي تليها: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ (٣) ، فهو لم يتساءل عن مخرج الأثقال ، بل سأل عن حال الأرض لما أبهرهم أمرها الفظيع وحالها العجيب ، والله تعالى أعلم .

---

(١) الزلزلة : ١ – ٢
(٢) محمود صافي – الجدول في إعراب القرآن وبيانه ، ص٣٨٤.
(١) الزلزلة : ٣

وتظهر قدرة المجاز على نقل المشهد في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [1]، حيث قيلت في أبي جهل الذي يُؤخذ بمقدمة رأسه ويُسحب بها إلى النار، ووصف ناصيته بالكذب والخطأ على الإسناد المجازي، وهما في الحقيقة لصاحبها وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطئ " [2].

وجاء في التسهيل لعلوم التنزيل: " ووصفها بالكذب والخطيئة مجازاً والكاذب والخاطئ في الحقيقة صاحبها، والخاطئ الذي يفعل الذنب متعمداً، والمخطئ الذي يفعله بدون قصد " [3] .

وقال البيضاوي: "وهما لصاحبهما على الإسناد المجازي للمبالغة"[4] وعند استعراض جذر (نصي) في القرآن نجدها في مواضع متعددة، كلها تحمل معنى القهر والإذلال . فقد وردت في قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [5]، واختصاص الناصية بالذكر؛ لأن من أخذ بناصيته يكون في

---

(٢) العلق : ١٥ – ١٦

(٣) الزمخشري ، الكشاف ، ج٤، ص٧٨٤ .

(٤) الكِلبي– التسهيل لعلوم التنزيل ،ج٤، ص٢٠٩.

(٥) البيضاوي– تفسير البيضاوي ، ج٥، ص٣٢٦ .

(١) هود : ٥٦ .

غاية الذل [1] ، وفي قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[2] أي يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره، وقيل: تسحبهم الملائكة تارة تأخذ بالنواصي، وتارة تأخذ بالأقدام [3].

وانظر إلى الاختيار الدقيق لكلمة الناصية، فهي مقدمة الرأس ويرمز بها إلى شرف الإنسان ومكانته، أصبحت مكاناً يُسحب منه إلى النار في صورة تبعث على الإحساس بالألم وشدة العذاب، فلو أخذ أحدهم بناصية فلان لصرخ ألماً، فما بالك بملائكة غلاظ شداد يأخذون الكافر من مقدمة رأسه إلى نار حامية ؟!!، فالمجاز في القرآن يختار الكلمات التي تفي المعنى حقه، والتي تصور الموقف تصويراً حسياً يُشعر بالألم بمجرد التخيل والتأمل .

وتجدر الإشارة إلى أنَّ العلم الحديث قد وصل الى أمر مهم في قضية الناصية ، حيث أثبتت الدراسات العلمية أنَّ الفص الجبهي الدماغي الذي يقبع داخل عظام ناصية الإنسان أو مقدمة جبهته، مسؤول عن التحكم بالحركات والأعمال الطوعية واختيار الكلمات ونطقها، وبذلك أشار القرآن الكريم إلى دور الفص الجبهي في الدماغ الذي يقع داخل الناصية في توجيه السلوك الإنساني بالتحكم في الأقوال والأفعال ، وهي منطقة مسؤولة عن الخطأ والصواب والصدق

---

(٢) ينظر : السيوطي– تفسير الجلالين ، ص٢٩٣.

(٣) الرحمن : ٤١ .

(٤) الزمخشري– الكشاف ،ج٤، ص ٤٤٩.

والكذب [١] . وبذلك يصير وصف الناصية بالصدق والكذب حقيقةً لا مجازاً، وإجماع بعض المفسرين القدماء على وجود مجاز عقلي فيها؛ جاء لعدم توفر الإمكانات العلمية والبحثية في زمانهم،التي من شأنها أن تعينهم على التمييز بين الحقيقة والمجاز .

وأما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [٢] فقد تعددت تأويلات لفظة سجى؛ لتعدد دلالالتها اللغوية، جاء في لسان العرب: سجا " بمعنى: سكن ودام، وسجا الليل: امتد ظلامه والليل إذا سجا: سكن، وليلة ساجية: ساكنة البرد والريح والسحاب غير مظلمة " [٣] فقيل في تفسير هذه الآية: أقبل، وقيل: شدة ظلامه، وقيل: غطّى، وقيل: سكن " [٤].

ويقع المجاز على اعتبار المعنى الأخير: سجا بمعنى سكن، إذ أسند السكون إلى الليل وهو في الأصل لأهله، ولا يعكس سكون الناس – لو جاء على الحقيقة– ما يعكسه هذا المجاز، وهو من التكثيف الذي يعبر عن المعاني

---

(١) ينظر : محمد يوسف سكر – الناصية ووظيفة الفص الجبهي للدماغ ، دراسة إعجازية لسورة العلق الموقع الإلكتروني : لرابطة العالم الإسلامي الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة www.nooran.org .

(٢) الضحى : ٢

(٣) ابن منظور – لسان العرب ، م٧، ص١٣٢.

(٤) ينظر : الزجاج – معاني القرآن وإعرابه ، ج٥، ص٣٣٩، والزمخشري –الكشاف،ج٤ ، ص٧٧٠، الرازي– التفسير الكبير ، م١٦ ،ج٣١ ، ص٢٠٨، القرطبي –الجامع لأحكام القرآن ، م٢٠، ص٩١-٩٢.

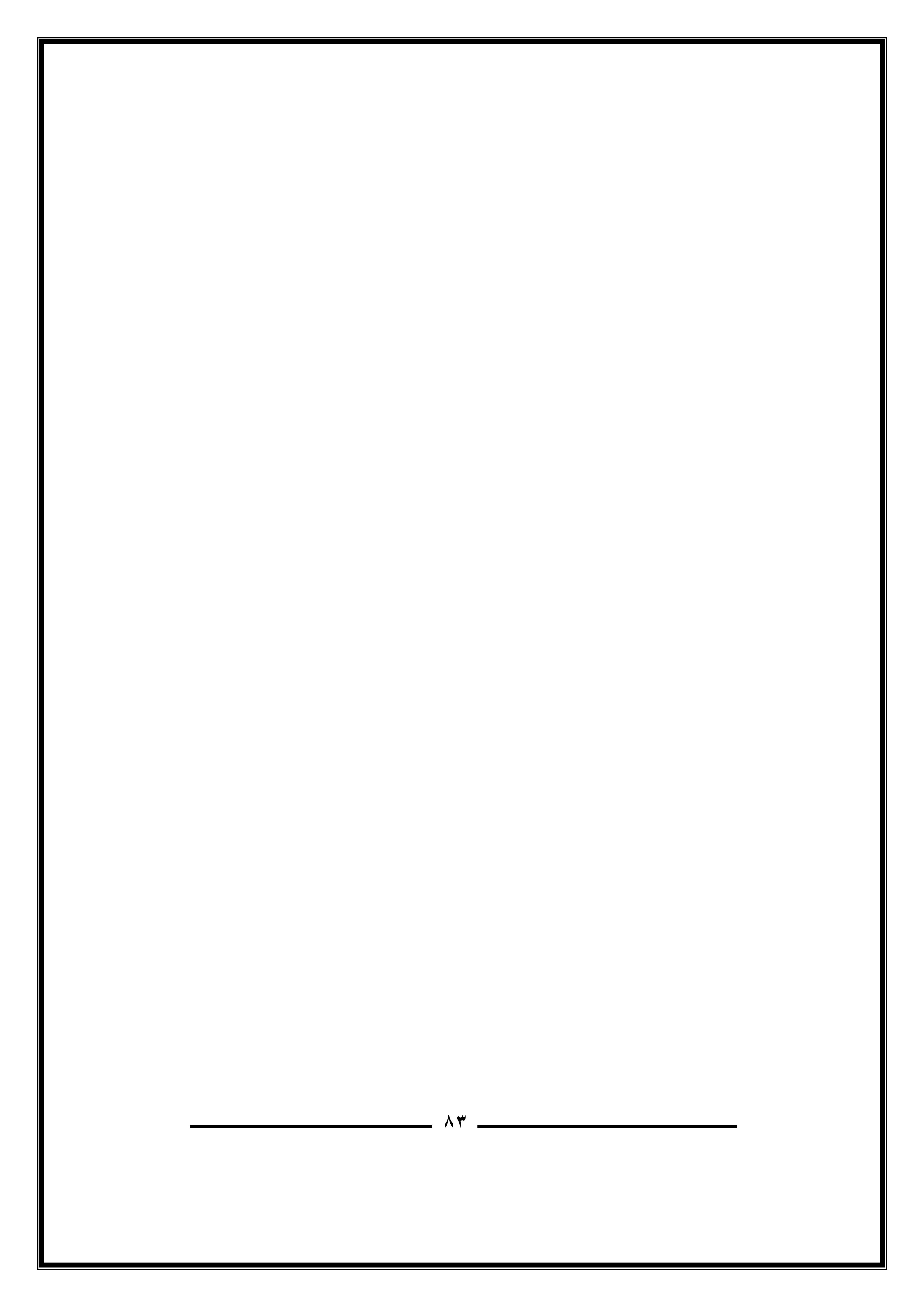
الكثيرة، فقد يسكن الناس لأمر طارئ ثم يعودون إلى الحركة، كما أنَّ هذا السكون قد يكون عند فرد دون آخر، أما إسناد السكون لليل فهو أعمُّ وأشمل، فهذا الليل الذي يرمي بوشاحه على الناس يبثُّ فيهم مشاعر السكون والهدوء.

ونختتم القول إنَّ الصورة المجازية في القرآن الكريم تعمد إلى انتقاء الألفاظ التي تحمل الدلالات الوافية بحق المعنى المُراد، وتمنح المتلقي دلالاتٍ فكرية عميقة من غير إطناب أو إطالة، فهي من " النوع المُوحي الذي يجعل القارئ أو السامع يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، وتُصور المنظر للعين، وتنقل الصوت إلى الأذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموساً مُحسَّاً " [١] ويكون ذلك من خلال ما تثيره الصورة المجازية من علاقات تستوجب من القارئ التفكر والتأمل إلى أن يحصل على المعنى، يقول الجرجاني عن لذة الاكتشاف بعد بذل الجهد الفكري في الكشف عن المعنى المستور، " ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيلُه أحلى، وبالمزية أولى فكان موقعِه من النفس أحلى، وألطف وكانت به أضن وأشغف " [٢] .

---

(١) صلاح الدين عبد التواب– الصورة الأدبية في القرآن ،ص٥٩.

(١) الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص١٨٢.



الفصل الثالث

الصورة الكنـائية

الكناية لغةً: " أن تتكلم بشيء وتريد غيره ، وكنَّى عن الأمر بغيره يكنّي كنايةً ، وقد تكنّى وتحجى: تستر " [١]، أما في الاصطلاح، فقد عرَّفها الجرجاني (ت٤٧١هـ) بقوله: " أَنْ يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ إليه ويجعله دليلاً عليه " [٢]، في حين عرَّفها السكاكي (ت٦٢٦ هـ) بقوله: " ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه بتنقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: (فلان طويل النجاد) ينتقل منه إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة ... وسمي كنايةً لما فيه من إخفاء وجه التصريح"[٣]، وجاء في الإيضاح للقزويني (ت٧٣٩ هـ): "الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ"[٤]، ومن تعريفات المحدثين – التي لم تخرج عن دائرة القدماء– للكناية: " لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له مع جواز إرادة المعنى الأصلي ؛ لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته " [٥]، والجامع لما ذُكر

---

(١) ابن منظور– لسان العرب ، م١٣ ، ص١٢٤.

(٢) الجرجاني– دلائل الإعجاز ، ص٦٦ .

(٣) السكاكي – مفتاح العلوم ، ص٥١٢.

(٤) القزويني– الإيضاح ، ج٢،ص٤٥٦.

(٥) الهاشمي – جواهر البلاغة ، ص٣٧٠ ، وينظر : فضل حسن عباس – البلاغة فنونها وأفنانها ، ص٢٤٧.

سابقاً أن الكناية لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز.

وقد بيَّن الجرجاني أنَّ الكناية تتأتى في المعنى عن طريق العقل لا اللفظ " فإذا نظرت إلى الكناية وجدت حقيقتها ومحصول أمرها، أنها إثبات لمعنى أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ، ألا ترى أنك لمّا نظرت إلى قولهم (هو كثير رماد القدر) وعرفت منه أنهم أرادوا أنّه كثير القرى والضيافة لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفته بأنْ رجعت إلى نفسك، فقلت: إنه كلام قد جاء عنهم في المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد على أنه تنصب القدور الكبيرة، ويُطبخ فيها للقرى والضيافة ؛ ذلك لأنه إذا كثر الطبخ في القدور كثر إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة " [١].

وتختلف الكناية عن المجاز كون أنَّ الأولى: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي، والأخير: لفظ أريد به لازم معناه، أيضاً إلا أنه يُستحال معه إرادة المعنى الأصلي، فأنت تقول على المجاز (رأيت أسداً في الميدان) ولكنه لا يكون أسداً على وجه الحقيقة، بينما الكناية في (فلان كثير الرماد) قد تكون للدلالة على كرمه، أو على الحقيقة وهو كثرة الرماد فعلاً"[٢].

---

(١) الجرجاني – دلائل الإعجاز ، ص٤٠٠-٤٠١ .

(٢) ينظر : من بلاغة القرآن – محمد علوان ، ص ٢١٠ – ٢١١ .

وقد ورد التعبير بالكناية في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾[1]

عن الشمس، جاء في لسان العرب: " توهجت النار: توقدت، وتوهج الجوهر: تلألأ، ونجم وهّاج: وقَّاد، ووهج الطيب: انتشر، وتوهجت رائحته: توقدت[2]، وأما في تفسير هذه الآية، فقيل: " متلألئاً وقاداً يعني: الشمس، وتوهجت النار إذا تلمظت* فتوهجت بضوئها وحرها "[3]، وعند البيضاوي: " بالغاً في الحرارة من الوهج وهو الحر، والمراد الشمس " [4]، فهذه الكناية تحمل صفة النور والحرارة معاً في صورة رائعة تَبِيْنُ عن صفة الشمس وحرارتها، فيستدلُّ بالصفة على الموصوف وهي بذلك أدعى إلى التفكر وإدراك المقصود، وقد أشارت البحوث العلمية إلى أنّ الشمس لها خاصية تسمى " المتوهجات " ... والمتوهجة هي منطقة بالجزء الأسفل من الشمس ترتفع حرارتها، وأنَّ السبب في هذا الارتفاع يرجع إلى وجود مجالات مغناطيسية تنتج جسيمات سريعة الحركة تصطدم بمادة جو الشمس العادية، فتُحيل هذه المنطقة من الشمس إلى متوهجات شمسية، وأشارت البحوث أيضاً إلى وجود فرن نووي في قلب الشمس حيث يتخذ من الأيدروجين وقوداً يحرقه، وكلما نفد الوقود انتقل إلى الأيدروجين الموجود في

---

(١) النبأ : ١٣

(٢) ابن منظور – لسان العرب ، م١٥، ص٢٨٨-٢٨٩

* جاء في هامش التحقيق : (تلمظت) في المخطوط (تلظَّت)

(٣) الزمخشري – الكشاف،ج٤ ، ص٦٨٦ .

(٤) البيضاوي – تفسير البيضاوي ، ص٢٧٩ .

الطبقات السطحية، فالأيدروجين بالنسبة للشمس هو الزيت بالنسبة للسراج الذي شبه الله سبحانه به الشمس [١] .

فالشمس تضيء الكواكب السيارة كلها بضوء قوي متوهج يصِّح معه وصفها بالسراج الوهاج، وتقوم الكناية- هنا- على طرفين أحدهما حاضر وهو اللفظ (السراج) الذي تنطلق منه سلسلة التوليد، والآخر غائب هو المدلول (الشمس)، وبينهما وسائط تقل وتكثر حسب المسافة الفاصلة بين الطرفين، وهي وسائط منطقية يمكن أن تتوفر عند جميع الناس، ولكنها غير كافية وترفدها وسائط ثقافية أخرى[٢] .

وقد أسهمت صيغة المبالغة (وهَّاجاً) في تحقيق التكثيف،إذ تتجاوز الشمس من خلال هذه الصيغة صفة الضياء إلى صفة التوقد والحرارة، وقد حملت الكناية على عاتقها رسم صورة موحية لصفة الشمس المتوهجة، وهي من إحدى " القيم الفنية للكناية وهي التعبير عن المعنى من خلال الصورة إذ إن شكل الجملة الذي تتخذه الكناية في التعبير، يجعل المعنى الثاني المكنى عنه

---

(١) ينظر : محمد كامل عبد الصمد- الإعجاز العلمي في الإسلام ، ص٤٦ – ٤٧ ، وينظر: داود سلمان السعدي- أسرار الكون في القرآن، ص٦٧.

(٢) يندرج تحت المسافة الفاصلة: التلويح، والإشارة، والرمز (ينظر: الأزهر الزناد- دروس البلاغة العربية، ص٨٧).

مختفياً وراء صورة ، لا نصل إليه إلا من خلالها، وكل تعبير من خلال الصورة هو بحد ذاته أبلغ وأجمل من التعبير المباشر" [١] .

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [٢] كناية عن الحور العين وصغر سنهن وشبابهن، فهنَّ مَنْ يصاحبن أهل الجنة في النعيم جزاءً لهم بما صبروا في دنياهم ؛ وتحقيقاً لعنصر المتعة والراحة بمفهومه الشامل الواسع في الجنة، يقول القرطبي (ت٦٧١هـ): " كواعب جمع كاعب وهي الناهد ... والأتراب الأقران في السن " [٣]، وتظهر بلاغة التكثيف- هنا- من خلال ما تحمله الكناية إلى المتلقي من معاني الحيوية والشباب والعذريَّة والجمال، وهذه المعاني لا تُرى بوضوح لو عُدل إلى التصريح .

ويعد هذا التكثيف من قبيل (تكثيف التسامي)* الذي من أشكاله وصف نساء الجنة، فيعبِّر البيان القرآني بالكلمة والكلمتين عن الجمال الشكلي ، وجمال المضمون الخلقي ، فاختزنت هذه الصورة معاني العفاف وفرحة الأزواج بهنَّ ، وما يتصل بالقناعة والرضا، دون خدش لوجه الأدب، ولعل هذا الشكل من التكثيف يقع عند القدماء تحت مسميات عديدة[٤]: (كالإشارة، والتعريض،

---

(١) صبحي البستاني- الصورة الشعرية في الكتابة الفنية ، ص١٦٧.
(٢) النبأ :٣٣
(٣) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ، م١٩ ، ص١٨٣.
* ينظر : أحمد ياسوف – دراسات فنية في القرآن الكريم ، ص٥٠٥ .
(٤) ينظر: تمهيد الكتاب ، ص١٤ وما بعدها.

الرمز) ، يقول عبد القاهر الجرجاني: " وكما أنَّ الصفة إذا لم تأتك مصرحاً بذكرها، مكشوفاً عن وجهها، ولكن مدلولاً عليها بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها، وألطف لمكانها، كذلك إثباتك الصفة للشيء تثبتها له، إذا لم تلقه إلى السامع صريحاً، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة، كان له من الفضل مزية، ومن الحسن والرونق ما لا يقلُّ قليله..." (١).

وجاءت الكناية في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ (٢)، لوصف حال أهل الجنة، جاء في الكشاف " أي لا يكذب بعضهم بعضاً ، ولا يكذبه أو لا يكاذبه " (٣)، وقال الفخر الرازي: " الضمير في قوله (فيها) إلى ماذا يعود ؟ (الجواب): فيه قولان الأول: أنها ترجع إلى الكأس ، أي لا يجري بينهم لغو في الكأس التي يشربونها ؛ وذلك لأن أهل الشراب في الدنيا يتكلمون بالباطل ، وأهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم ولم يتكلموا بلَغْو ، والثاني: أنَّ الكناية ترجع إلى الجنة أي لا يسمعون في الجنة شيئاً يكرهونه "(٤)، ولعل القول الثاني أبلغ من الأول لأن فيه معنى الشمول، وضمناً تدخل معه الأحاديث التي تدور حول الأكواب ، جاء في تفسير القرآن العظيم: " أي ليس فيها كلام

---

(١) الجرجاني – دلائل الإعجاز، ص٣٠٦.
(٢) النبأ :٣٥
(٣) الزمخشري– الكشاف ،ج٤، ص ٦٩٠ .
(٤) الرازي – التفسير الكبير ، م ١٦ ، ج ٣١ ، ص ٢٤ .

لاغٍ عار عن الفائدة ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص " [1] .

وعلى الأغلب تقع هذه الكناية تحت تكثيف التسامي الذي ذُكر سابقاً، حيث عُدل فيها عن التصريح بألوان الكذب واللغو، واختزنت هذه الكناية نفي كل ما يكدر صفو أهل الجنة، أو يعكِّر صفو راحتهم النفسية، فكلها أجواء مُغلَّفة بالراحة والنعيم، فنفي اللغو والكذب عن المؤمنين كناية عن نفي سماع ما قد يؤذيهم أو يسيئهم، وسيكون هذا جزاء ما صبروا عليه وما سمعوه من التكذيب والإهانات والشتم من قِبَلِ المشركين أو غيرهم في الدنيا، ولا يعني انتفاء اللغو أو الكذب وحدَه فقط، بل هو انتفاء لأقل المكدرات في الجنة التي لا يقتصر نعيمها على المتاع المادي فحسب .

وفي قوله تعالى: ﴿مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [2] وصفٌ للمسكين وكناية عن شدة فقره،" فهو لا يملك شيئاً حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر، ليس له مأوى إلا التراب .. قال أبو حامد الخارزنجي: المتربة هنا من التريب، وهي شدة الحال، يقال ترب: أي افتقر " [3].

---

(١) ابن كثير– تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص٤٦٥ .
(٢) البلد : ١٦
(٣) القرطبي– الجامع لأحكام القرآن ، م٢٠، ص٧٠.

وقد حملت هذه الكناية دلالات مُكثفة تُبرز عنصر الفقر، فهو لا يملك سوى التراب للدلالة على جوعه، والتراب يُوارى به الميت فهو لفقره ميت نسبياً، فضلاً عن صفة التغبر التي يخلفها التراب ؛ وقد أفادت (ذو) التي تأتي بمعنى المصاحبة والملازمة تعلق الصفات السابقة به، وقد تناسب هذا التكثيف في الكناية مع الآية التي سبقتها في السورةِ نفسِها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[1]، فلا يُرى أشد وأهون حالاً من حال الإنسان في هذه الآية .

وفي لفظة (عبد) في قوله تعالى: ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾[2] كناية عن سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – قال القرطبي: " وعبداً وهو محمد – صلى الله عليه وسلم – فإنَّ أبا جهل قال: إنْ رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه، قال أبو هريرة: فأنزل الله تعالى هذه الآيات تعجباً منه " [3] .

جاء في تفسير البيضاوي: " ولفظ العبد وتنكيره للمبالغة في تقبيح النهي، والدلالة على كمال عبودية المنهي" [4]، فتسهم الكناية في تحقيق مفهوم العبودية لله –عز وجل– وصلاحه لكل زمان ومكان، والعدول عن ذكر سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – يجعل من هذه الحادثة حادثة عامة ؛ ليكون

---

(١) البلد : ٤

(٢) العلق : ١٠

(٣) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن، م٢٠، ص١٢٤ .

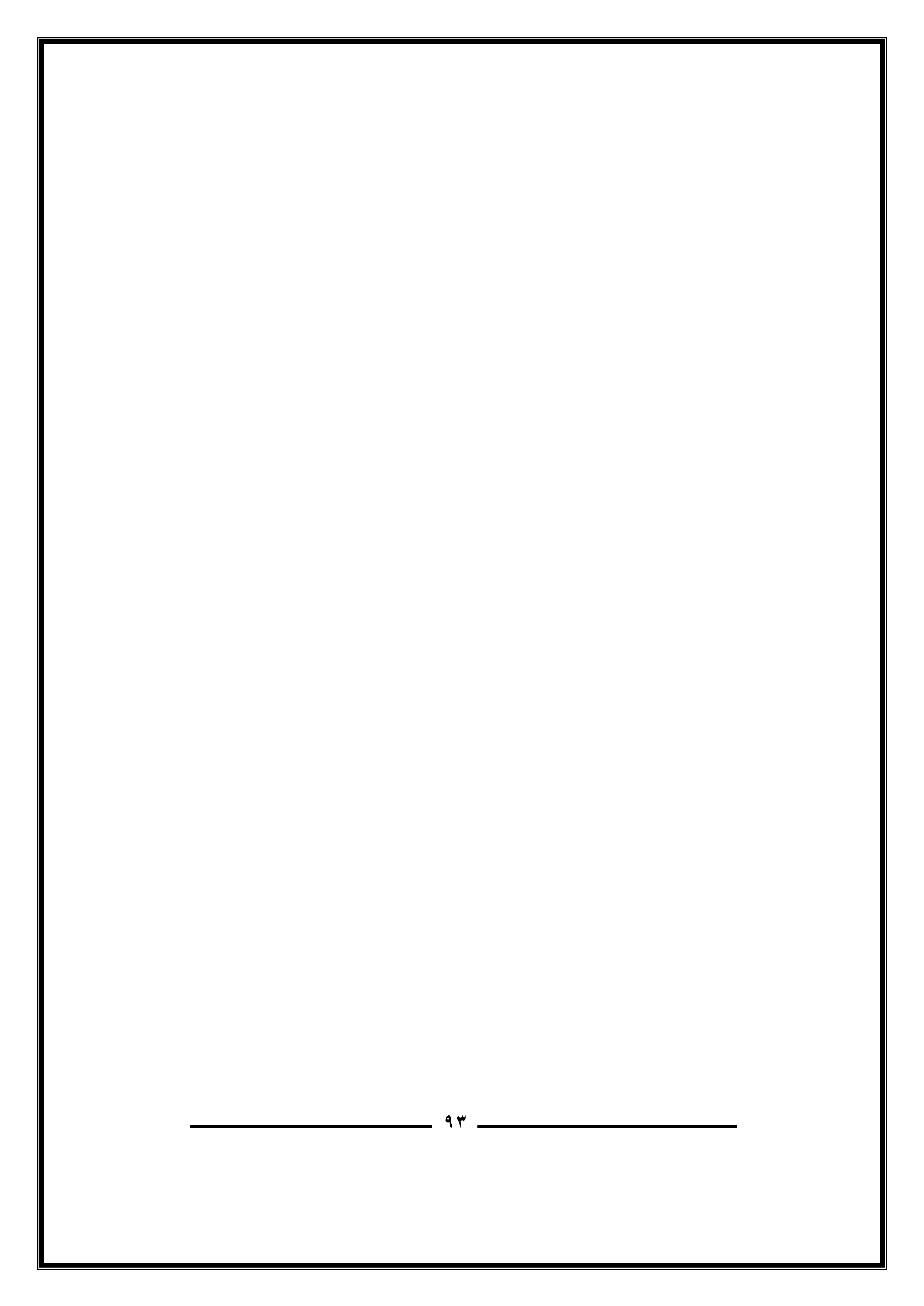
(٤) البيضاوي – تفسير البيضاوي ، ص٣٢٦ .

التهديد شاملاً شديدَ اللهجة لكل من تُسوِّل له نفسه أن يقف عائقاً بين الإنسان وربه . وهذا شأن القرآن كله فهو صالح لكل زمان ومكان، ورسالته لا تقتصر على قوم دون آخر أو حادثة دون أخرى، فقد اختزن التكثيف في هذه الكناية توسيع رقعة المخاطبين بالأمر .

ولعله يُلاحظ فيما سبق أنَّ الصورة الكنائية مع إيجازها وإيحائها تحتفظ بدلالاتها المتعددة، حيث نستشف منها المعنى كاملاً غير منقوص، فتبرز الكناية في مواقف ستر المعنى الذي لا يُحسن ذكره، وفي رسم الصورة مصحوبة بدليلها .*

---

* ينظر ما قاله الجرجاني عن فضل التعبير بالكناية ، دلائل الإعجاز(ص٧٠ -٧٢) ، ولمزيد من التفاصيل حول الصورة الكنائية ينظر : حسن طبل – حول الإعجاز البلاغي في القرآن ، ص١٤٥ وما بعدها .



الفصل الرابع
الصورة الوصفية

يُقصد بالصورة الوصفية تلك الصورة التي تتكئ على الوصف المباشر (الحقيقة) لرسم مشهد ما، ولا يعني ذلك خلو بعضها من الصور المجازية إلا أنها سرعان ما تنصهر في القالب العام للصورة المرسومة، وتوحي الصورة الوصفية بدلالات متنوعة تكون أبلغَ من المجاز في موقعها وضمن سياقها الواردة فيه.

فالتصوير الوصفي المعتمد على الحقيقة لا يقل أهمية عن التصوير المجازي، بل يتعاضد التصويران معاً في بعض الأحيان ؛ ليوسعا من مفهوم التصوير الفني للقرآن، وقد وقع التصوير الوصفي في جزء عمّ على شكلين، الأول: الجدل التصويري، والثاني: وصف مشاهد القيامة وما يصاحبها من مشاهد للانقلابات الكونية وتصوير للجنة والنار .

١- الجدل التصويري:

يندرج تحته الصور التي وقعت في إطار النموذج الجدلي القائم على إفحام الخصم وإلزامه الحجة من خلال النظر في الأدلة الكونية أو التدبر في خلق الإنسان . ومن صور ذلك " تقرير المخاطَب بطريق الاستفهام عن الأمور

التي يُسلِّم بها الخصم وتُسلم بها العقول ؛ حتى يعترف بما ينكره " [1] ، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [2]، فقد انتظمت هذه الآيات في لوحة كونية مُصدرة بالاستفهام، فمن يقدر على خلق كل هذا قادرٌ على البعث والنشور، فهذه الصورة يَسْتَدِلُ بها الخَلْقُ على وجود الخالق، وتردُّ على من أنكر البعث، وقد سُبقت هذه الصورة بقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[3]، فالمشركون يتساءلون عن يوم البعث إنكاراً واستهزاءً به[4]، فجاء الرد باللوحة الكونية الدَّالة على وجود الله وقدرته على البعث والنشور .

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا

---

(١) مناع القطان- مباحث في علوم القرآن ، ص٣٠٣ .
(٢) النبأ : ٦ – ١٦
(٣) النبأ : ١ – ٤
(٤) ينظر : الزمخشري – الكشاف ،ج٤ ، ص٦٨٥ .

﴿مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ (1)، ففي الصورة رجوع إلى منكري البعث من كفار قريش لِلَفْت أنظارهم إلى آثار قدرته -عز وجل- ومظاهر عظمته وجلاله (مثل: خلق الإنسان والسماء، والأرض، والجبال، والماء ... إلخ)، وقد صُدِّرت الصورة بالاستفهام لتحقيق معنى التقرير، جاء في التفسير الكبير: " إنَّه استدلال على منكري البعث فقال: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ فنبههم على أمر يُعلم بالمشاهدة ؛ ذلك لأنَّ خلق الإنسان على صغره وضعفه، إذا أضيف إلى خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها يسير، فبيَّن تعالى أنَّ خلْقَ السماء أعظم، وإذا كان كذلك فخلقهم على وجه الإعادة أولى أن يكون مقدوراً لله تعالى فكيف ينكرون ذلك ؟ " (2) .

ومن الآيات الكونية ما جاء مقروناً بالنظر والتدبر ؛ للاستدلال على وجود الخالق، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ (3)، فقد " نبّه الله تعالى البدوي إلى الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الربُ العظيم الخالق المالك المتصرف، وأنه الإله

(1) النازعات : ٢٧ – ٣٣
(2) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١ ، ص٤٤.
(3) الغاشية : ١٧ – ٢٠ .

الذي لا يستحق العبادة سواه " [1] . وتصدير الآيات بالاستفهام وفعل (ينظرون) تأكيد لما ذكره ابن كثير، فالنظر من مفاتيح الإدراك بالعقل، وأقواها إثباتاً للإنسان .

ومن الصور الأخرى للجدل التصويري نَظرُ الإنسان في خلقه، والاستدلال بالمبدأ على المعاد، نحو قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾[2]، وفي هذه الآيات " دعاءٌ على الإنسان وهي من أشنع دعواتهم؛ لأن القتل قُصارى شدائد الدنيا وفظائعها، (وما أكفره) تعجب من إفراطه في كفران النعمة ... ثم أخذ في وصفه من ابتداء حدوثه إلى أن انتهى، وهو مغمور فيه من أصول النعم وفروعها، وما هو غارز فيه رأسه من الكفران والغمط، وقلة الالتفات إلى ما يتقلب فيه وإلى ما يجب عليه من القيام بالشكر"[3]، وقد بدأت الصورة باستفهام غرضه زيادة التقرير في التحقير، ولا شك أنَّ النطفة شيء حقير مهين والغرض من ذلك الوصف، أنّ من كان أصله مثل هذا الشيء

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ،ج٤ ، ص٥٠٤.

(٢) عبس : ١٧ – ٢٢

(٣) الزمخشري – الكشاف، ج٤ ، ص٧٠٢ .

الحقير، فالتكبُّر والتجبُّر لا يليقان به[1]، فالقادر على بدء الخلق قادرٌ على إماتته وإحيائه كرة أخرى .

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾[2]، يقول ابن كثير في هذه الآيات: " نبَّه تعالى الإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدرعلى البداءة فهو قادرعلى الإعادة بطريق الأولى " [3]، فهذا التصوير– أيضاً – من باب الاستدلال بالمبدأ على المعاد .

ودعا القرآن الإنسان إلى النظر في طعامه ليكون دليلاً آخر على أحقيته– عز وجل– بالعبادة والطاعة، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [4]، فالله –عز وجل– سخر للإنسان أسباب المعاش، وخلق له الطعام الذي به حياته، فأخرج له من الأرض بالماء كلَ أنواع الحبوب والنباتات . وكان المقصودُ من ذكر هذه الأشياء أموراً ثلاثة: (أولها) الدلائل الدالَّة على التوحيد،(وثانيها) الدلائل الدالَّة

---

(١) ينظر : الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١، ص٦٠–٦١.
(٢) الطارق : ٥– ٨ .
(٣) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص٤٩٨ .
(٤) عبس : ٢٤ – ٣٢ .

على القدرة على المعاد، و(ثالثها) أنَّ هذا الإله الذي أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان ؛ لذا لا يليق بالعاقل أن يتمردَ على طاعة الله وينكر فضله[1].

كما حملت الآيات دليلاً على البعث عن طريق "الاستدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً باليةً وتراباً متمزقاً " [2] .

ويُلاحظ بأن القرآن الكريم يلجأ في أدلته ومناظراته إلى أدلة وبراهين جليّة، يفهمها العامّة والخاصة، فلمْ يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج، وذلك لأن القرآن جاء بلسان عربي يخاطبهم بما يعرفون ؛ ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهده وتحس أقوى أثراً وحجةً، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة في القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية [3] .

ويظهر التكثيف في الصور السابقة من خلال انتقائها لعناصر محددة من خلق الله ونعمه، مع وفائها بالغرض وتعبِّر عن شمولية تلك النعم للإنسان،

---

(١) ينظر : الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣٢، ص٦٤.
(٢) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص٤٧٢ .
(٣) ينظر : مناع القطان – مباحث في علوم القرآن ، ص٢٩٩ – ٣٠٠ .

فعند النظر إلى مخلوقات الله ونعمه في الآيات السابقة نجد تعلقها جميعاً بالإنسان ؛ لأنه مناط الحكم والمستخلف في الأرض، لاحظ . (خلْق الأرض، والجبال، وخلْق الأزواج، والنوم، والليل، والنهار، والسماوات، والشمس، والماء، والنبات، والأنعام (الإبل)، وخلْق الإنسان وطعامه) إنَّها نِعَمٌ قريبة من بصره وعقله ؛ لذا كان أثرها في النفس أوقع وآكد، وبالغرض أوفى وأقنع .

٢- مشاهد القيامة:

يزخرُ جزء عمّ بمشاهد يوم القيامة، فلا تكاد تخلو سورة من الإشارة إلى يوم القيامة تصريحاً (بذكر اليوم أو أحد أسمائه وصفاته)، أو تلميحاً (ببيان مظاهر الانقلاب الكوني المصاحبة له الدالّةِ على وقوعه) .

وتجيء مشاهد القيامة بوصفها إجابات وافية ومكمّلة للصور الأخرى، فبعد أن تُعرض مشاهد خَلْقِ الإنسان وحياته وموته، تُعرض مشاهد الآخرة وما يترتب عليها من جزاء، فالإنسان إما في الجنة وإما في النار . فالله -عز وجل - يُري الإنسان حياتَه الممتدة في العالم الآخر على شكل مشاهد مصورة يرى فيها نفسه وعمله .

وقد تعددت أسماء القيامة وأوصافها في هذه المشاهد، وتباينت طرق عرض المقاطع التي تشكل مشاهد القيامة ؛ وذلك لتكون الأحداثُ أشدَّ وقعاً وتأثيراً وإقراراً في النفس. فقد وردت أسماء القيامة في جزء عمّ، كالآتي (يوم

الفصل، والطامّة، والساعة، والصاخّة، والغاشية، والقارعة)، قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ [(١)]، " والمعنى أنَّ هذا اليوم كان في تقدير الله وحكمه حداً تُؤقت به الدنيا، أو حداً للخلائق ينتهون إليه، أو كان ميقاتاً لما وعد الله من الثواب والعقاب ، أو كان ميقاتاً لاجتماع كلِ الخلائق في فصل الحكومات وقطع الخصومات " [(٢)] ، جاء في الجامع لأحكام القرآن: " وسمّي يوم القيامة بيوم الفصل ؛ لأنَّ الله تعالى يفصِل فيه بين خلقه، وقد جعله الله وقتاً وميعاداً للأولين والآخرين " [(٣)]، ويلاحظ تَعَدُدُ التأويلات والآراء، وهذا شكل من أشكال التكثيف إذ تحتمل اللفظة أكثر من معنى ولا وجه لترجيح تأويل دون آخر ؛ لأنه لا يوجد في النص ما يُرجح ذلك، ويقع هذا أيضاً تحت مفهوم الاتِّساع ، حيث تتسع دلالة اللفظ فتختزن معاني متعددة.

ثم وُصف يوم القيامة بـ (الطامّة) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [(٤)]، والطمُّ في اللغة: العلو والغمر والدفن، وطمَّ الشيءَ : غمره، والطامة: الداهية تغلب ما سواها، وطمَّ الشيء بالتراب: كبسه[(٥)]، وقال الزجاج (ت ٣١١هـ): الطامة الصيحة التي تطم كل شيء، والتي يقع معها البعث

(١) النبأ : ١٧ .
(٢) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١، ص ١١ .
(٣) ينظر : القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ، م١٩ ، ص١٧٥ .
(٤) النازعات : ٣٤
(١) ابن منظور – لسان العرب ، م٩ ، ص ١٤٦.

والحساب والعقاب والعذاب والرحمة " (١)، فهو اسم لكل داهية عظيمة يُنسى ما قبلها في جنبها ... ففيها من الموقف الهائل ومن الآيات الباهرة الخارجة عن العادة ما يُنسى معه كل هائل (٢) .

وسميت القيامة (بالساعة) تلك الساعة التي أخفى الله موعدها عن البشر، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ (٣) ، وفي لفظة الساعة " تصوير لقربها الزمني وكأنها هذا الوقت المحدود " (٤) .

وانظر ما يحققه أحد أسماء القيامة (الصآخّة) من صخٍ للآذان ؛ لشدة وقعها وتأثيرها في النفوس ، عند تلاوة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾(٥)، جاء في لسان العرب: " الصخُّ الضرب بالحديد على الحديد، والعصا الصُلبة على شيء مصمت، وصخَّ الصخرة وصخيخها: صوتها إذا ضربتها بحجر، والصاخة: القيامة" (٦)، وقال الزجاج (ت٣١١هـ): " الصاخة التي تكون عنها القيامة، تصخُّ الأسماع أي تصِمُّها فلا يسمع إلا ما يدعى فيه

---

(٢) الزجاج – معاني القرآن وإعرابه ، ج٥ ، ص٢٨١ .
(٣) ينظر : الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١ ، ص٥٠ –٥١ .
(٤) النازعات : ٤٢
(٥) عبد السلام الراغب : وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، ص٣٢٦ .
(٦) عبس : ٣٣ .
(١) ابن منظور– لسان العرب ، م٨ ، ص٢٠٦.

لإحيائها " [1]، وذكر الزمخشري وجهاً آخر فقال: " صخ لحديثه مثل أصاخ له، فوصفت النفخة مجازاً ؛ لأن الناس يصخون لها " [2] أي يستمعون لها .

وسميت القيامة – أيضاً – بالغاشية في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾[3] والغاشية " الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها " [4]، جاء في التفسير الكبير: " ذكروا في الغاشية وجوهاً أحدها: أنها القيامة وسميت بذلك ؛ لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاشٍ له، والقيامة كذلك من وجوه، الوجه الأول: أنها ترد على الخلق بغتةً، والوجه الثاني: أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين، والوجه الثالث: أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد، وأما القول الثاني: الغاشية النار أي تغشى وجوه الكفرة، والقول الثالث: الغاشية أهل النار يغشونها ويقعون فيها، والقول الأول هو الأقرب ؛ لأنَّ على هذا التقدير يصير المعنى أن يوم القيامة يكون بعض الناس في الشقاوة، وبعضهم في السعادة " [5]

وقد اعتمد الرازي – في ترجيحه القول الأول– على الآيات التي تحدثت عن نوعين من الوجوه، العاملة الناصبة التي تصلى النار الحامية، والوجوه الناعمة الهانئة بنعيم الجنة، فحديث الغاشية لم يقتصرعلى ذكر

---

(٢) الزجاج– معاني القرآن وإعرابه ، ج٥ ، ص٢٨٧ .

(٣) الزمخشري– الكشاف،ج٤ ، ص٧٠٦.

(٤) الغاشية : ١

(٥) الزمخشري– الكشاف ،ج٤، ص٧٤٤ .

(٦) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج ٣١ ، ص ١٥١.

أصحاب النار أو ذكر وجوههم، بل ذُكر أيضاً أصحاب الوجوه الناعمة، وما يكون ذلك الفصل والجزاء إلا يوم القيامة، كما وأنَّ " لفظة يومئذٍ أنسب إلى يوم القيامة منه للنار " (١) .

وختمت أسماء القيامة في جزء عمّ باسم (القارعة) في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ (٢) جاء في لسان العرب: " قرع: ضرب ، والمقرعة: خشبة تضرب بها البغال والحمير ، والقراع والمقارعة: المضاربة بالسيوف ، والقارعة: المصيبة ، وترس أقرع: صلب شديد، والتقريع: التأنيب والتعنيف " (٣) فهي " التي تقرع الناس بالأهوال والأفزاع " (٤) ، وقال القرطبي: " تقول العرب: قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة ، إذا وقع بهم أمر فظيع " (٥)، وجاء في البحر المحيط: " القارعة القيامة نفسها ؛ لأنها تقرع القلوب بهولها " (٦) .

إنَّ تعدد أسماء القيامة – كما رأينا – يدلُّ على عِظَم شأنِ ذلكَ اليومِ، فكل ما عظُم شأنه تعددت صفاته وكثُرت أسماؤه ، فالقيامة عظُم أمرها وكثرت أهوالُها ، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة ، ووصفها بأوصاف كثيرة ،

---

(١) الشنقيطي- تتمة أضواء البيان ،ج٩ ، ص١٠٧.
(٢) القارعة : ١ – ٣
(٣) ابن منظور- لسان العرب ، م١٢، ص٧٦-٧٧ .
(٤) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣٢ ، ص٧١ .
(٥) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ، م ٢٠ ، ص١٦٤.
(٦) الأندلسي – البحر المحيط ، ص٥٠٦.

فالشيء إذا عظم خطره كثرت أسماؤه ، أو كما قال الإمام علي – رضي الله عنه – : كثرة الأسماء تدل على عِظَم المسمَّى [1].

فيلمح التكثيف في أسماء القيامة إذْ تحمل كل لفظة في طياتها دلالات كثيرة، فالقيامة أمرٌ غيبي تعددت مظاهر كلُ اسم من أسمائها ؛ ليكوِّن القارئ تصوراً أقربَ ما يكون إلى حقيقتها، فليس التعدد – هنا– من الترادف فقد كان لكل اسم أو وصف دلالة جديدة تَبِينُ عن عنصر آخر يُبرز شدة هذا اليوم وهوله، ففي يوم الفصل تقال كلمة الفصل التي لا رجعة فيها فإما سعيد وإما شقي، ويُفصل بين الخلائق فيأخذ كل ذي حق حقه، والطامة تطمُّ وتعمُّ بأحوالها ، والغاشية تغشى الخلائق جميعهم فالكل محاط بهذا اليوم، والقارعة وصف لشدة هولها فهي مصيبة تهجم على القلب بأمرها الهائل، فهذه أحوال متعددة للقيامة تُبرز عظمتها وشدتها . ويمكن تصنيف دلالات هذه الأسماء كالآتي: (الساعة ، يوم الفصل = دلالة الزمن) ، و(الطامة ، الغاشية = دلالة العموم)، و(القارعة، الصاخة = دلالة الإيقاع الصوتي) .

ولم تأتِ مشاهد القيامة مفردةً ، بل صاحبها بعض المقاطع والصور التي تؤازرها فتزيد من هول الموقف وعظمته، وهي على نوعين:

---

(١) ينظر :الشنقيطي : تتمة أضواء البيان ،ج٩ ، ص٢٥١.

١- الأول: مقاطع تصور الانقلاب الكوني الحاصل يوم القيامة، للإشارة إلى قدرته -عز وجل- على قلب نواميس الكون، وزيادة في تحقيق الرعب والخوف من هذا اليوم العصيب .

٢- الثاني: مقاطع تصور الجزاء من نعيم أو شقاء بناءً على ما قدمه العبد في دنياه ؛ حتى تكون صور الجزاء أقرب إلى التصور، فيستشعر المؤمن لذة الجنة، ويحسّ الكافر ألمَ النار .

ويتفاوت ذكر هذه المقاطع في مشاهد القيامة من مشهد لآخر، فقد تُذكر هذه المقاطع كاملة في مشهد متكامل كما هي الحال في سورة النبأ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾(١).

---

(١) النبأ : ١٨ - ٣٦ .

فيلاحظ التدرُج في تصوير المشهد وارتباطه ببعضه بعضاً، فيبدأ المشهد بذكر اسم القيامة (يوم الفصل) وموعده المفاجئ والنفخ في الصور، والانقلابات الكونية الهائلة المصاحبة له، ثم وصف للنار والجنة وما فيهما من عذاب أو نعيم بحسب العمل ؛ لتشكل هذه اللوحة مشهداً متكاملاً عن صورة يوم القيامة وتبعاته في الأذهان، ولتحقق الأثر الديني في النفوس علاوةً على إقرار هذا اليوم في العقول ؛ بما يحمله من هول ورعب يصدمان العقل والقلب معاً .

ومثل ذلك – أيضاً– قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ (١)

فالصورة تحمل أهوالاً مرعبة ، ويزيد في هولها لفظة القارعة ، ولا يخفى ما تحمله هذه الكلمة من تكثيف، فهي تثير في الأذهان ما تثير من الأهوال ، وتكرار الاستفهام يوحي بأهميتها وخطورتها ، وهي في شدتها لا يبلغها خيال أحدهم ولا فهمه ، من حركة للناس كالفراش وصورة للجبال

---

(١) القارعة : ١-١١

المنفوشة والأعمال الموزونة ، وختام المشهد بالنار الحامية يتناسق ومطلع القارعة المخيف ، فهي صورة وصفية تبدأ بالتهويل وتنتهي بالتخويف .

وقد يُحذف من صورة القيامة مقاطع محددة ، كـ (حذف مقطع الانقلابات الكونية) في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ (١) ، فالبدء كان بالطامة التي تطم كل شيء ، ثم عرضٌ لمشهد الأشقياء ثمَّ السعداء ، وغالباً ما تعرض صور النعيم وصور الجحيم متقابلة في مشاهد القيامة حتى تتم المقارنة بينها ؛ لإيضاح الفروق في الجزاء بحسب اختلاف الأعمال في الدنيا ، وبهدف الإقناع والتأثير في النفوس .

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾ (٢) ،

---

(١) النازعات : ٣٤ – ٤١

(٢) عبس : ٣٤ – ٤٢

فذكر يوم القيامة (الصاخة) يعبر عن حالة الفزع والخوف التي يقاسيها الإنسان والناجمة عن تقطع الروابط الاجتماعية وانشغاله بنفسه،" فلا يوجد أخصر من هذا ولا أدله في تصوير اشتغال القلب والفكر بالهم الحاضر القاهر، حتى لا موضع سواه، ولا تلفت ولا انتباه " [١] ثم يعرض المشهد صورة المؤمنين أصحاب الوجوه المستبشرة بنعيم الله، ومشهد الكافرين أصحاب الوجوه البائسة، وفيها تقابل يهدف إلى تحقيق وسيلة الترغيب والترهيب للإقناع والتأثير. وقد أسهمت دلالة الترتيب في هذه الصورة في اختزان معاني انشغال النفس في ذلك اليوم العصيب، فقد اقتضى البيان القرآني أن يجري العطف – هنا– على هذا النمط الخاص الذي يبدأ بالأخ فالوالدين، فالزوجة، فالبنين، وهو مبني بهذا النسق الخاص على معنى معين، وهو الترقي في الحب؛ لأنه يناسب فكرة الفرار والنكوص عن مساعدة أقرب الأقربين؛ انشغالاً بهمومه الخاصة ومشكلاته الذاتية، ولذا تأخر ذكر الأبناء، فلو بدأ بذكرهم لما احتاج بعد ذلك إلى ذكر غيرهم ، فالتخلي عن نجدة الأبناء، والانصراف عنهم، هو أقصى ما يمكن أنْ يصل إليه التعبير عن حب الذات والاستغراق المطلق بالقلق الشخصي على المصير في ذلك اليوم العصيب (الصاخة) [٢] . ومن الصور التي حُذِف منها مقطع الانقلابات الكونية – أيضاً – قوله تعالى:﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾

---

(١) سيد قطب– التصوير الفني في القرآن ، ص٦١ .

(٢) ينظر : عفَّت الشرقاوي – بلاغة العطف في القرآن الكريم (دراسة أسلوبية) ، ص١٧٠ وما بعدها .

تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [(١)] ، فيبدأ المشهد باسم جديد يوحي بالأهوال التي تصيب الناس يومئذٍ ، وفيه تعجيل بمقطع العذاب قبل النعيم لقربه من أجواء الغاشية ، فهناك الوجوه التي تعبت لغير الله ، للمال والأولاد والمتاع الزائل ، فسُقيت بماء يغلي من عين بالغة الحرارة وطعامهم شوك لا نفع فيه[(٢)] ، ويقابل هذا المقطع المحموم الملتهب مقطعٌ متفيء بالظلال تروح النسائم فيه وتغدو ، مقطع خصب بالماء والثمار ومقطع هادئ فيه من السكون والسلام والراحة ما فيه .

وعلينا أنْ نأخذ بعين الاعتبار أنَّ مشاهد القيامة والجنة والنار تُحرك حواسنا لندرك أقصى درجات الألم للنار ، وأعلى درجات اللذة والحلاوة للجنة ، " فإدراك طبيعة شيءٍ متوقف على نوع هذا الإدراك ، وأهل الأرض يدركون بحس مقيدٍ بظروف هذه الأرض وطبيعة الحياة فيها ، فإذا كانوا عند الله رفعت الحُجب وأزيلت الحواجز ، وانطلقت الأرواح والمدارك ، وتغيرت مدلولات الألفاظ بحكم تغير مذاقها " [(٣)] فالمذاق مختلف، ولكن القرآن يرقى بهذه الصور الحسية

---

(١) الغاشية : ١-١٦ .
(٢) ينظر : سيد قطب – في ظلال القرآن ، م ٨ ، ج٣٠، ص ٢٥.
(٣) المرجع السابق ، ص١٤٧ .

فيجعلها متشابهة في الظاهر مع النعيم الحسي في الدنيا؛ لتحقق الأثر الديني المطلوب .

ومن مشاهد يوم القيامة ما يعرض لمقطع الانقلاب الكوني والجزاء، دون التصريح باسم القيامة أو أحد أسمائها، بل يدل على وقوع ذلك اليوم ما يصاحبه من انفلات في نواميس الكون، في نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ (١) فالسماء تستمع لربها وتطيعه وحق لها أن تطيع أمره ؛ لأنه العظيم القوي فكانت في قبول ذلك التأثير " كالعبد الطائع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المالك ، أنصت له وأذعن " (٢) ، وتُمد الأرض فتتسع للخلائق يوم الحساب حتى لا يكون لأحدهم

---

(١) الانشقاق : ١ – ١٥

(٢) الرازي – التفسير الكبير ، م ١٦، ج٣١، ص ١٠٤.

إلا موضع قدمه [١] ثم تلقي الأرض ما فيها من أموات ؛ لتعامل كل نفس بما عملت ، فمن أخذ كتابه بيمينه فقد أفلح ، ومن أخذه بيساره فقد خاب .

وتتكرر مشاهد الانقلاب الكوني في سورة أخرى ، من قبيل تنويع المشاهد المصورة ، فيلاحظ في كل مشهد زيادة لعناصر تتفق مع الغرض الديني والسياق العام للآيات ، وتحقق عامل التأثير في النفس ، ومثال ذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [٢] فالسماء متشققة ، والكواكب متناثرة ، والبحار متفجرة والقبور مبعثرة * ، " وبين هذه الانقلابات الكونية المرعبة ترابط وتواصل ضمن السياق ؛ للإيحاء بالأهوال والأحوال المخيفة ، فهي بمنزلة الطوارق على الحس ؛ لإيقاظه وتهيئته ؛ لاستقبال الفكرة الدينية المطلوبة في قوله تعالى: (عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ) " [٣] .

ويُلاحظ مجيء الأفعال في هذه الصور على صيغة الماضي المجهول ؛ وذلك لأنَّ هذه الأمور متحققة الوقوع حتماً في المستقبل ، فُعبِّر عنها بالماضي للإيحاء بذلك ، وأما كونه للمجهول فلصبِّ الاهتمام على الفعل ، وجاء تغييب

---

(١) ينظر : القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ، م ١٩ ، ص ٢٧٠.

(٢) الانفطار : ١ – ٥

* ينظر : دلالة الترتيب في هذه الآية ، الكتاب نفسه ص٥٦.

(٣) عبد السلام الراغب – وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، ص٣٣٤ .

الفاعل للتركيز على الحدث نفسه ، كما يلاحظ تشخيص الجوامد فالسماء والكواكب ، كأنَّها عبدٌ ينقاد لخالقه في صورة توحي بالاستجابة التامة السريعة ، دون تردد أو تكاسل .

ومن مشاهد الانقلاب الكوني أيضاً قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[1] فحين يتصور الإنسان نفسَه على الأرض، وهي تُدك دكاً عنيفاً يتمنى حينئذٍ لو أنه قدّم لهذا اليوم ، فالمشهد رهيب تُدك فيه الأرض دكاً دكاً ، " وفي وسط هذا الروع الذي يبثه العرض العسكري الذي تشترك جهنم بموسيقاه العسكرية المنتظمة الدقات ، المنبعثة من البناء اللفظي الشديد الآسر ، وبين العذاب الفذِّ والوثاق النموذجي يُقال

---

(١) الفجر : ٢١ – ٣٠

لمن آمن: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ "[1] .

وقد تأتي السورة كاملة لتحملَ معاني الانقلاب الكوني، وتقابلُ بين أهلِ الجنةِ وأهل النار مثل سورة الزلزلة، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٦﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾[2].

فتضطربُ الأرض مُلقيةً ما في جوفها من الدفائن والأموات وسط دهشة الخلائق واستغرابهم لما يرونه من أمور فظيعة لم يألفوها من قبلُ، حيث تنطق الأرض بإذنه فتخبر بما عُمل عليها، ويخرج النَّاس من قبورهم متفرقين، بحسب مراتبهم ليروا أعمالهم[3]، فمن يعمل مثقال ذرة من خير يجزَ به، ومن يعمل مثقال ذرة من شر يجزَ به، وهذا من أغراض التكثيف الذي يختزن

---

(١) سيد قطب – التصوير الفني ، ص٩٧.
(٢) الزلزلة : ١ – ٨ .
(٣) ينظر: البيضاوي –تفسير البيضاوي، ص٣٣٠ .

دلالات تدفع المتلقي إلى العمل والتحرك فور التقاطها، فليست الصورة تجسيماً للأعمال ووزنها فحسب، بل تدفع- هذه الصورة- الإنسان إلى عمل الخير وإنْ قل، والبعد عن أعمال الشر وإنْ قلت . فالكلُ يعمل لكنْ لكلِ عملٍ جزاءٌ، ولكلِ مجتهدٍ نصيبٌ .

ومن مشاهد يوم القيامة ما يَعرِض صورَ الانقلاب الكوني فحسب، في نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ (1) .

إنَّ الأهوال المرسومة في هذه المشاهد متعددة الألوان والأشكال والهيئات والحركات منها الصور الضوئية المظلمة (الشمس المكورة ، والنجوم المطفأة ، والصور المتحركة في سير الجبال ، وصورة النوق المهملة ، والوحوش الذاهلة المتسمرة في مكانها ، والصور الحرارية في البحار الملتهبة ،

---

(١) التكوير : ١ – ١٤

والصورالنفسية المجسمة في إهمال النوق المرغوبة ، ونشر الصحف) [1] . فهذه الإشارات دالَّةٌ على وقوع يومِ القيامة حيثُ ينشغل كلُ إنسان بما قدَّم في حياته، ويعلم وقتئذٍ ما له وما عليه .

وكذا الأمر في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ [2] فمع قصر هذا المشهد إلا أنّ فيه صورة رهيبة حققها اللفظان (بعثر ، وحُصَّل) ففيهما معنى الشدة إذا تبعثرت القبور هنا وهناك، وشدة المحاسبة وتحصيل الأعمال ، وخُتِمَ المشهد " بمعرفة الله بالجزئيات الزمانيات، لأنه تعالى نصَّ على كونه عالماً بكيفية أحوالهم في ذلك اليوم " [3] ، فأعان التكثيف في هذه الصورة على شحذ الجو بالعنف والتعفير، ومتى يكون هذا ؟؟ الإجابة حتماً: يوم القيامة يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون .

وجيء ببعض المشاهد لتصوير الجنة والنار ، وهي مشاهد قد تأتي متقابلة في سورة واحدة وقد تأتي منفردة في السورة ، مع العلم بأنَّ هذه المشاهد تختلف عن المشاهد السابقة ، بأنها لا تتصل بمظاهر الانفلات الكوني أو القيامة صراحةً ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ

---

(١) ينظر : عبد السلام الراغب – وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، ص٣٣٣ .
(٢) العاديات : ٩ – ١١
(٣) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣٢، ص٧٠ .

لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (1) ، ويظهر التكثيف في هذا المشهد القصير بما يثيره من صور في مُخيلة المتلقي ، فيتخيل عذاب جهنم ، وتلك النار الهائلة ، ويتخيل الجنات التي تجري من تحتها الأنهار في صورة سمعية ، وكأنَّه يسمع في آذانه خرير مياه تلك الأنهار .

ومالت بعض مشاهد القيامة إلى عرض مقابلة طويلة بين أهل النعيم وأهل الجحيم دون ذكر لمظاهر الانفلات الكوني في ذلك اليوم ، بل التركيز على الجزاء في المقام الأول وذلك في سورة المطففين في قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن

(١) البروج : ١٠ – ١١

رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ
﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ
﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا
رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ
ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[١] .

فهذا التطويل يتناول مشهدين متقابلين: مشهد النعيم العظيم الذي ينعُم به المقربون، ومشهد السخرية التي كانت تنالهم من المجرمين، وكلما زاد المشهد طولاً كانت المفاجأة أوقع عندما يقول: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ وهذا هو المقصود[٢]، فالمشهد يصور تبدُّل الأحوال، فقد كان الكفارُ في الدنيا أقوياءَ متسلطينَ على المؤمنين مستهزئين بهم، وكان المؤمنون ضعفاءَ يحتملونَ ويصبرونَ، فانقلبت الأحوالُ وأصبحَ الكفارُ ضعفاءَ لا حولَ لهم ولا قوة، في حين أصبح المؤمنون في موقع يؤهلهم للضحك من الكفار ومصيرهم .

---

(١) المطففين :٤-٣٦

(٢) ينظر : سيد قطب ، التصوير الفني ، ص١٤٠

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ (1) .

ففي الآيات مقابلة بين جزاء الكفار (شر البرية)، وبين الذين آمنوا (خير البرية) على أنَّ في صورة المؤمنين تفصيلاً يوحي بالنعيم والاطمئنان والجمال، في حين أنَّ ذِكْرَ الذين كفروا دونَ تفصيلٍ دلالةٌ على التحقيرِ منْ شَأْنِهِم وذكرِهم، فلهم النارُ خالدين فيها، وبهذا العرض تزيد الرهبة في قلوبهم وكأنه عذاب مفتوح عام، يحمل ما يحمل من ألوان العذاب الدائم .

وقد تأتي صورة النار مفردة مثل قوله تعالى: ﴿ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ﴾ (2) فيُرى في المشهد تهديد ووعيد لذلك الشخص (الهمزة، اللمزة) الذي يدأبُ على الهزء بالناس، وعلى لمزِهم في أنفسهم وإحراجهم، فيُلْقى في نار جهنم الملتهبة المغلقة التي لا يقدر أحد على

---

(1) البيّنة : ٦ – ٨

(2) الهمزة : ٤ – ٩

إنقاذه منها [1]، فخلو هذه الصورة من مفردات الرحمة أو الجنة– ولو عن طريق التقابل – يوحي بعظم الذنب المرتكب فهي أجواء مُغلفة بالعذاب، وقد اختزن التكثيف في الألفاظ (الحطمة، والموقدة، والمؤصدة) عناصر النار الثلاث، وفي كل لفظة من هذه الألفاظ حذف قصر يختزن دلالات تأخذك في النهاية إلى شدة حرارة هذه النار وحجم العذاب الحالِّ بها .

فانظر– مثلاً – إلى ما توحيه لفظة (مؤصدة) في الذهن من دلالات، الدلالة الأولى: إذا أراد الكافر النظر إلى أسفل عاين عذاباً ، وإلى أعلى عاين عذاباً فهي مغلقة ، وإلى طعامه: عذاباً ، وإلى مائه: عذاباً ، وإلى شرابه عذاباً ، وإلى ثيابه: عذاباً ، وإلى أقرانه: عذاباً ، فالأجواء مُشبعة بالعذاب، الدلالة الثانية: القنوط من فرصة الخلاص، فعندما يرى الكافر النار وقد أُغلقت عليه ، علم أنه خلود لا مفر منه ، فكيف ستكون حالته النفسية حينئذٍ؟! ، الدلالة الثالثة: انعدام فرصة وجود نسمة باردة لينة تخفف من العذاب، فهي نار مغلقة هواؤها من نارها، الدلالة الرابعة: تمركز العذاب وحرارته في مكان واحد هو النار، فلا يخفى على أحدكم ما يحدثه تغطية وعاء تحته نار، من حبس وحصر للحرارة والغليان والكثير من الدلالات، ولعل ناظراً آخرَ في هذه الآية يستشف هذه الدلالات وغيرها، فاللفظ في الصورة يختزن معاني عدة، تُحدث في النفس الأثر اللازم للرجوع إلى الله .

---

(١) ينظر : سيد قطب– في ظلال القرآن ، ص٢٤٧.

ويمكن الخروج بعد هذا العرض للصورة الوصفية بسمات أسلوبية، منها :

١- اعتماد القرآن الكريم على التصوير ، فاللفظ المجرد لا يُحدث في النفس ما تحدثه الصورة من تأثير؛ لأنه يقرر المعنى بأسلوبٍ مباشرٍ مألوفٍ، بينما تستثيرُ الصورة – من خلال التكثيف- الشوقَ لدى الإنسان لمعرفة هذا البعيد غيرِ المباشر، ويسعى إلى تحصيله بكل حواسه وإعمال فكره وبَذْل الجهد لمعرفة المقصود * .

٢- تعاضد التصوير المجازي (الاستعارة، والمجاز المرسل) مع التصوير الوصفي ليشكلا دائرة التصوير الفني، وقد ظهر سابقاً أن المشهد الواحد قد يُعرض بأساليب تصويرية مختلفة تتناسب مع السياق والموقف.

٣- إنَّ تصوير مشاهد الكون والآخرة بصور مقارِبَة لما هو مُتصور ومحسوس، يُقرِّب الصورة إلى الأذهان، فعندما ضربَ الله -عز وجل- المشاهدَ على قدرتِه جاء بالجبال والسماء والإبل والنبات، فكل ما هو منظور يوافق كتابه المسطور، وفي مشاهد القيامة كان الاعتماد على أمور حسيَّة تقرب الصورة إلى الإنسان، فيعيش مع صورة النار في لَفْحِ حرارتها وشدة مائها ومرارة طعامها ، ويشعر في صورة الجنة بالهدوء والاطمئنان والنسيمِ العليل والطعام الهانئ والماء والعسل .. إلخ، وهي وإنْ لم تكن مشابهة لما عند الله تعالى ، لكنها في أحوالها هذه مرغوبة ومحبوبة عند الناس ، فكيف بنعيم الله

---

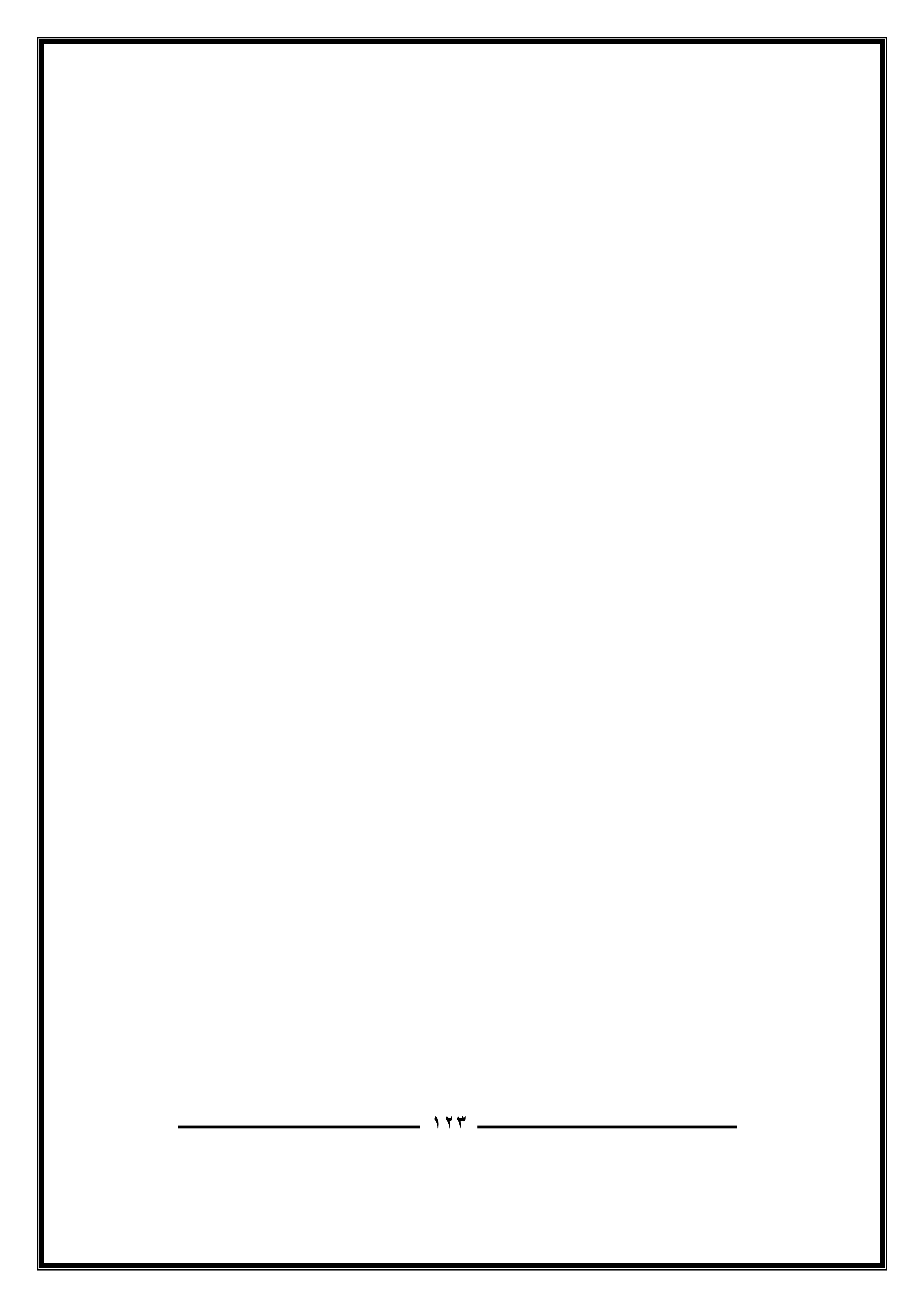
* يمكن الرجوع إلى قول الجرجاني في متعة الكشف عن المعنى المستور في الكتاب نفسه ص ٧٨/٧٧.

تعالى المضاعَف في الجنة؟!، وأما في باب الصور التي جاءت لمجادلة الكفار وإلزامهم الحجة، فيلجأ التصوير إلى مخاطبتهم بالعقل بكل سهولة دون الميل إلى التعقيد والتكلف في الأدلة فكلها أدلة دامغة عيانٌ أمامهم .

٥- إنَّ بعض المشاهد المتكررة مثل مشاهد القيامة التي يرافقها انفلات كوني، ومشاهد الجنة والنار، تختلف من سورة إلى أخرى بحسب السياق، فعندما يتعلق الأمر بأهوال القيامة تُذكر صور الانفلات الكوني المرعبة، وعندما يُراد التركيز على عمل الإنسان يُؤتى بصورة الجنة والنار، مع ملاحظة أن أغلب الصور المتعلقة بالجنة والنار قد جاءت متقابلة ؛ لبيان الفرق وترسيخه في النفس، ولكي يتحسر من فاته الفوز بالجنة، ويرى المؤمنون وعد ربهم حقاً .

٦- يلاحظ التناسق الفني في الصور فهي تتناسب مع سياق الآيات تارة، وتتناسب مع الوظيفة التي تختزنها الصورة، كالوظيفة الدينية، والوظيفة النفسية، والوظيفة العقلية .

٧- يُرى في مشاهد الجنة والنار اختلاف أشكالِ النعيم والجحيم من سورة لأخرى، لكي تحقق الأثر المطلوب، فلو كانت بالألفاظ نفسها وبالإيقاع نفسه لبردت دلالاتها وألفتها الآذان، وحينها لا يكون لها وقع ولا تأثير، فالتكثيف في الوصف يبقي حرارة التصور وقوته حاضرة في الأذهان .



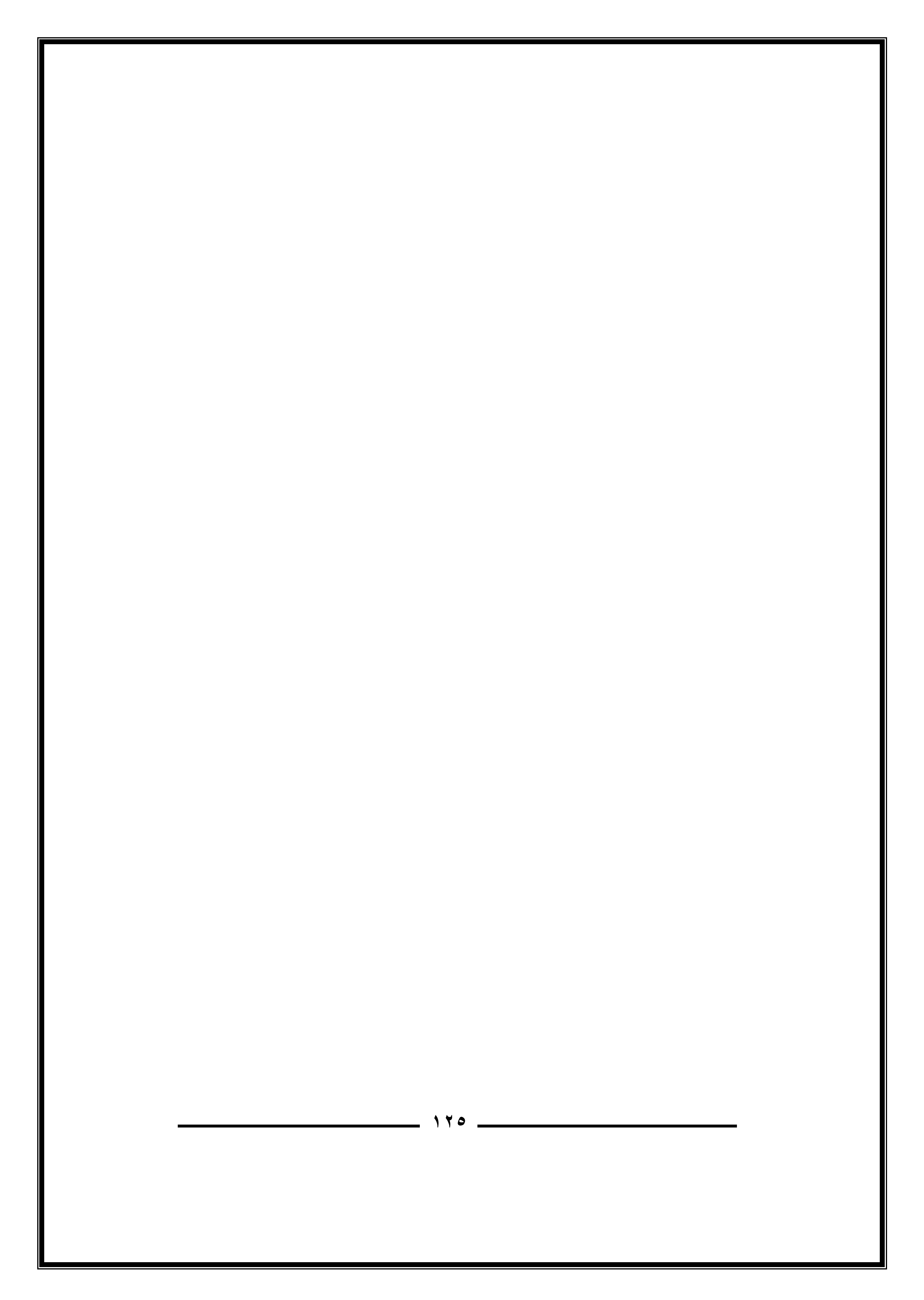
الباب الثاني –
التكثيـف فـي الأســـلوب

- **الفصل الأول : التعريف والتنكير**

- **الفصل الثاني : التقديم والتأخير**

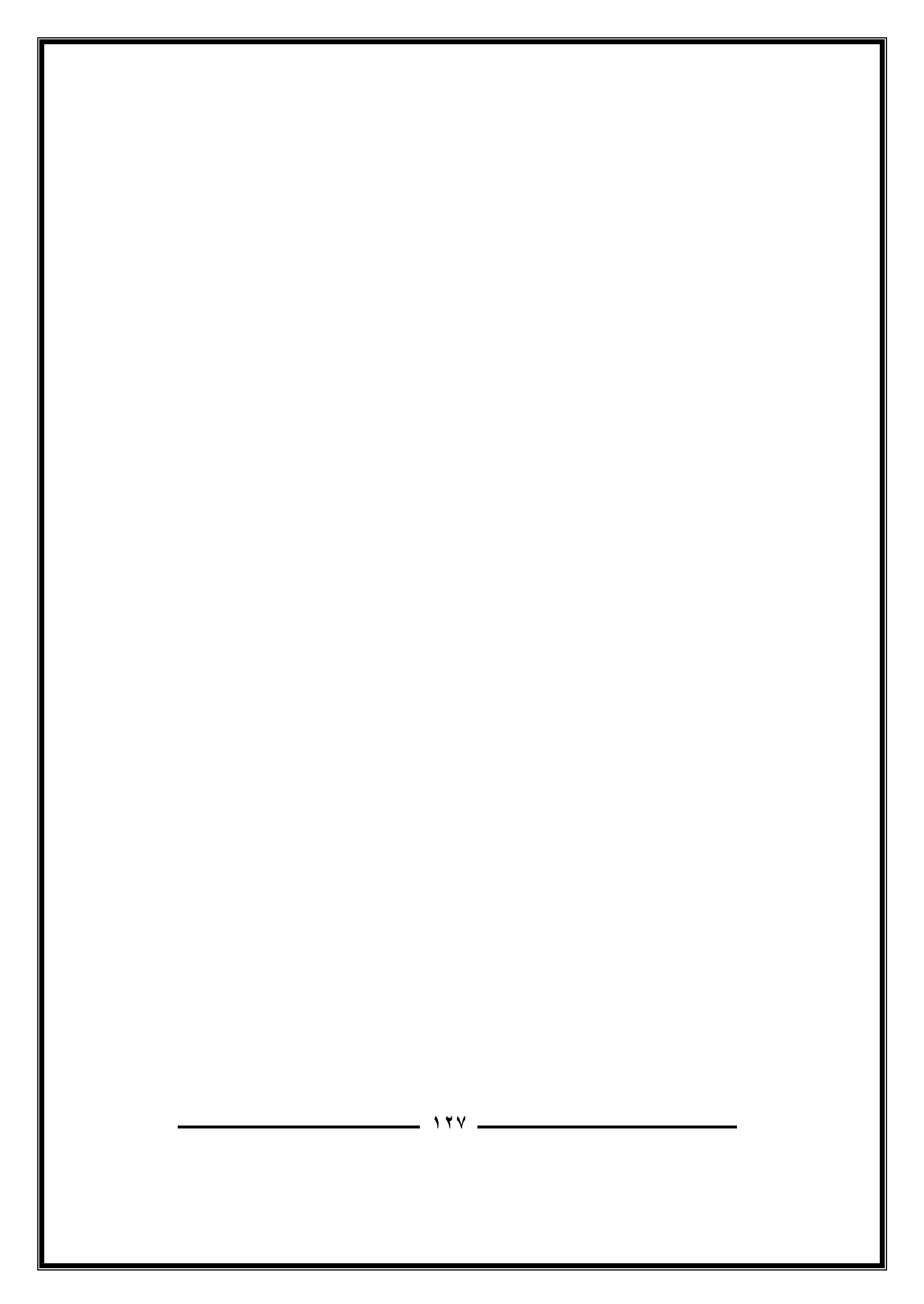
- **الفصل الثالث : التـــكــــــــرار**

- **الفصل الرابع : الاســــــــتفهام**



تمهيد

يتناول هذا الباب التكثيف في الأسلوب من خلال عرض بعض الظواهر الأسلوبية في جزءٍ عمّ ، فاستخدام أسلوب أو نمط ما ينقل دلالات موجهة نحو المتلقي بحيث لا تحملها التراكيب التي قد تخلو منه، فدخول (أل) التعريف على الاسم يحمل دلالات أسلوبية تختلف عمَّا تحمله النكرة ، وتبرز ظاهرة التكرار بوصفها إطناباً مُركزاً يقدم للمتلقي محوراً مكثفاً يكون مدار اهتمامه ورعايته ، في حين يختزن أسلوب الاستفهام دلالات متنوعة تتنوع بتنوع أشكاله وأنماطه، كما أنَّ أسلوبية التقديم والتأخير تنقل إلينا دلالات خاصة تختلف باختلاف الترتيب المُتبع في الجملة ، فاستخدام هذه الأساليب وغيرها يختزن دلالات مُكثفة يستغنى عن ذكرها صراحة في النص، ويكون للمتلقي دورٌ مهم في استنباط هذه الدلالات والكشف عنها، وهذا ما نحن بصدد الحديث عنه .



الفصل الأول

التعريف والتنكير

يُعد أسلوبا التعريف والتنكير من الظواهر الأسلوبية المميزة في جزء عمّ ، وهما من الأساليب البلاغية التي تأخذ بالحسبان أحوال المخاطبين ومقامات الخطاب ، وتستخدم لتعبر عن معنى خاص يريده المتكلم ، وينسجم مع ما في نفسه من الأفكار والمشاعر.

- أولاً : التعريف

يقول العلوي في الطراز: "اعلم أنَّ المعرفة ما دلت على شيء بعينه"[1]، والمعارف في العربية هي: الضمائر ، والأعلام ، والأسماء الموصولة ، ثمَّ المعرف بـ (أل) ، والمضاف إلى واحد من هذه المعارف ، " بشرط أن تكون إضافة معنوية لا لفظية " [2] .

١- التعريف "بأل": تأتي (أل) التعريف في العربية على نوعين: الأول: العهدية: وتكون " لتعريف عهد وجودي بين المتكلم والمخاطب، كقولك: قدم الرجل، وأنفقت الدينار لمعهود بينك وبين المخاطب" [3]، والثاني:

(١) العلوي – الطراز : ص٢٠٨ .

(٢) المصدر نفسه : ص٢٠٨.

(٣) السيوطي – الأشباه والنظائر في النحو ، ص٥٦.

الجنسية (وتسمَّى لام الحقيقة) *: وتكون" لتعريف الجنس نحو قولهم: الرجل خيرٌ من المرأة إذا قوبل جنس الرجال بجنس النساء " [١] .

وقد استعمل القرآن الكريم (أل) استعمالاً دقيقاً، حيث تتعدد المعاني التي تفيدها (أل) التعريف باختلاف المقام، فتفيد (أل) الجنسية الاستغراقَ والعموم، أي استغراق الألفاظ جميعاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [٢]، جاء في الكشاف: " والإنسان للجنس ... والمعنى: أنَّ الناسَ في خسران من تجارتهم إلا الصالحين وحدهم؛ لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وسعدوا " [٣] ، وجاء في تفسير البيضاوي: " والتعريف للجنس " [٤]، ودليل الاستغراق – هنا– القرينة المقالية (اللفظية) ، أي كل إنسان بدليل الاستثناء ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[٥]، الذي هو علامة إرادة العموم، إذْ شرطه دخول المستثنى في المستثنى منه لو لم يذكر[٦].

* ينظر : الهاشمي – جواهر البلاغة ، ص١٤٥.
(١) السيوطي ، الأشباه والنظائر في النحو، ص٥٧.
(٢) العصر :٢
(٣) الزمخشري – تفسير الكشاف،ج٤ ، ص ٨٠٠، وينظر: ابن عاشور– التحرير والتنوير،ج ٣٠، ص٥٣٠.
(٤) البيضاوي – تفسير البيضاوي ، ج٥، ص ٣٣٦ .
(٥) العصر : ٣
(١) ينظر : المراغي – علوم البلاغة ، ص١٤٣.

ولك أن تقول ذلك أيضاً في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (١) فالإنسان– هنا– اسم جنس، بدليل الاستثناء بعده " فليس المعنى أنَّ كلَ إنسانٍ يعتريه هذا، بل في الجنس من يعتريه ذلك، ومن لا يعتريه " (٢)، وأكدَّ البيضاوي ذلك بقوله: " يريد به الجنس " (٣) وقصد جنس الانسان .

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ (٤) يقول الرازي: " قيل هذا قول الكافر، وهو كما يقولون (مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا) ، فأمَّا المؤمن فيقول: (هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ)، وقيل بل هوعام في حق المؤمن والكافر أي الإنسان ...، وهو ليس بسؤال بل هو للتعجب " (٥)، فقد عرض الرازي الرأيين دون ترجيح أحدهما على الآخر، في حين يرى الباحث أنَّ الإنسان للعموم بدليل النظر إلى الآيات التي تليها، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن

(٢) التين :٤– ٦
(٣) الأندلسي– البحر المحيط ، ج٨، ص٤٨٩ .
(٤) البيضاوي– تفسير البيضاوي ، ج٥، ص ٣٢٣ .
(٥) الزلزلة : ٣
(٦) الرازي– التفسير الكبير ، م١٦، ج٣٢، ص ٦٠ .

يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [1]

فالآيات في شأن الفزع العام الذي يصيب الخلائق أجمع، والذي سيليه عرضٌ لأفعال الإنسان فيرى ما فعل من خير أو شر، ولو كان المقصود بالإنسان (الكافر) ؛ لاختصت الآيات بعدها بعرض أعماله الباطلة لكننا نرى الحديث عن أعمال الشر وأعمال الخير – على سبيل المقابلة – فمن يعمل الشر يلقَ شراً مثله (النار)، ومن يعمل خيراً يلق خيراً مثله (الجنة)، وبهذا يتفق الباحث مع ما ذهب إليه صاحب البحرالمحيط، حينما قال: " جاءت الآية على معنى التعجب لما يرى من الأهوال، والظاهرعموم الإنسان " [2] . فالآية خاصة بجنس الإنسان فكل إنسان يرى الموقف سيتساءل متعجباً عما حدث للأرض ؟!! .

ومن أمثلة التعريف بأل الجنسية، قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾[3]، فالتعريف في الوقود للجنس، جاء في تفسير البيضاوي: واللام في الوقود للجنس"[4]، ويقصد بالوقود الشيء الذي يُحرَق في الأخدود من حطب أو غيره، فالوقود اسم لذلك الشيء [5] .

---

(١) الزلزلة : ٤– ٨

(٢) الأندلسي – البحر المحيط ، ج٨، ص٤٩٩.

(٣) البروج : ٥

(١) البيضاوي – تفسير البيضاوي ، ج٥ ، ص ٣٠١ .

(٢) ينظر : الرازي – التفسير الكبير ، م١٦، ج٣١ ، ص١١٩ ،

وجاءت اللام للجنس أيضاً ، في قوله تعالى : ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ (١)،
جاء في البحر المحيط: " والظاهر أنَّ المقسمَ به هو جنس العاديات، وليست (أل) للعهد " (٢)، والعاديات "خيلُ الغزاة تعدو فتضبح، والضبح: صوت أنفاسها إذا عدون " (٣) .

وفي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ (٤)، يقول البيضاوي: "وتعريفه باللام دون الإضافة للإشعار بأنه سبيل عام " (٥)، وجاء في البحر المحيط : " السبيل العام اسم جنس في هدى وضلال ، أي يسر قوماً ما لهذا ، كقوله (إنَّا هديناه السبيل) وقوله: (وهديناه النجدين) " (٦) ، فاللام – هنا – للجنس .

أما (أل) العهدية فمن أمثلتها تعريف (البيّنة) في قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ (٧) ؛ لأنهم كانوا

---

(٣) العاديات : ١
(٤) الأندلسي- البحر المحيط ، ج٨ ، ص٥٠٣ .
(٥) الزمخشري- الكشاف، ج٤ ، ص٧٩٣.
(٦) عبس : ٢٠
(٧) البيضاوي- تفسير البيضاوي ،ج٥ ، ص٢٧٨.
(٨) الأندلسي- البحر المحيط ، ج٨ ، ص٤٢٨ .
(١) البيّنة : ١

يترقبون بيّنة لا ينفكون عن الكفر أو تأتيهم ، على أنَّهم لم يكونوا ينتظرون بيّنة محددة بل " كانوا يترقبون بيِنة تعرف بأوصافها عند مجيئها "[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [2] ، جاءت اللام في (القيِّمة) عهدية ، " والقِّيمة هنا الكتب، التي جرى ذكرها، كأنه لما تقدم لفظ (قيمة) نكرة، كانت الألف واللام في القيمة للعهد، كقوله: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴾ "[3]، وهذا من أحد أنواع العهد الخارجي ويسمَّى(بالعهد الصريحي) [4] وهو أن يتقدم ذكره صريحاً بالنكرة ثم يَرِدُ بعدَه مُعَرَّفاً .

ويحتمل تعريف (العسر) في قوله تعالى" ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ﴾[5] الدلالةَ على العهد وهو العسر الذي كانوا فيه، أو" الدلالة على

---

(٢) ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ،ج٣٠، ص٤٧٤ .
(٣) البيّنة : ٥
(٤) الأندلسي- البحر المحيط ، ج٨، ص٤٩٩ .
(٥) الهاشمي - جواهر البلاغة ، ص١٤٤ .
(١) الشرح : ٦

الجنس الذي يعلمه كل أحد " [1]، فالعسر معرف لا يتعدد " سواء كان للعهد أو الجنس، واليسر منكر فيحتمل أن يراد بالثاني فردٌ، يغاير ما أُريد بالأول " [2] .

كما أنَّ العسر هنا واحد واليسر يسران ، " قال سعيد عن قتادة: ذُكر لنا أنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بشَّر أصحابه بهذه الآية فقال: (لن يغلب عسر يسرين) ، فالعسر الأول عين الثاني، واليسر تعدد " [3] ، والمراد باليسرين: ما تيسر للمسلمين من الفتوح أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، أو ما تيسر لهم في أيام الخلفاء، أو هو يسر في الدنيا ويسر في الآخرة [4] .

فدخول (أل) التعريف على الاسم يختزن دلالة ما، يسهم السياق في تحديدها والكشف عنها .

٢- التعريف بالإضافة: من المقاصد الأسلوبية للمضاف إلى معرفة دلالته على الإيجاز " لأنه ليس للمتكلم طريق إلى إحضاره في ذهن السامع أشد اختصاراً منه، أي يقصد إليه رغبةً في الإيجاز" [5] لذا تتعدد الدلالات التي تمنحها الإضافة للتركيب، ويعد هذا التعدد شكلاً من أشكال التكثيف، فقد تحمل الإضافة

---

(٢) الزمخشري– الكشاف ، ج٤، ص ٧٧٦.
(٣) ينظر : البيضاوي – تفسير البيضاوي، ج٥ ، ص٣٢١ .
(٤) ابن كثير– تفسير القرآن العظيم ، ج٤،ص٥٢٥.
(٥) ينظر : الزمخشري – الكشاف ،ج٤، ص ٧٧٧ .
(١) محمد أبو موسى– خصائص التراكيب ، ص١٦٢.

دلالة التكريم والتشريف، كما يلاحظ في قوله تعالى:﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴾[1] فقد نُسبت الناقة إلى الله " تشريفًا؛ لأنها خرجت من حجر أصم معجزة لصالح عليه السلام" [2] ؛ ولأنها مسخرة مُسيَّرة كما أمرها الله، وتتناسب هذه الإضافة مع إضافة ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾وهي للتشريف من مكانة سيدنا صالح – أيضاً – ورسالته، فأضيف اللفظان (رسول، ناقة) إلى المضاف نفسه (الله) ليُعلم أن مصدرهما واحد ، فتأتي الناقة بوصفها برهاناً على صحة نبوة صالح عليه السلام ، وآيته الدالة على توحيد الله .

وتجيء الإضافة لتحقيق معنى الاختصاص، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾[3]، فالإضافة هنا: إلى خصوص الناس " إشعارٌ بمزيدِ اختصاصٍ ورعايةِ الربِ سبحانه وتعالى لعبده الذي دعاه إليه ؛ ليستعيذَ به من عدوه "[4]، وقد تحققت الزيادة في الرعاية بفعل الإضافة.

(٢) الشمس : ١٣

(٣) الصابوني– صفوة التفاسير ،القسم العشرون ، ص٦٦ .

(٤) الناس : ١

(١) الشنقيطي– تتمة أضواء البيان ،ج٩، ص٣٥٥ .

وقد تردُ الإضافة للتهويل والتفظيع في نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [١]، فأضيفت لتحقيق القدر اللائق بها في الحكمة من تهويل[٢]، فهو زلزال واحد شديد يحمل دلالات الخراب والدمار .

وقل ذلك- أيضًا - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [٣] ، فإضافة العذاب إلى جهنم وإلى الحريق حققت غاية التهويل والتخويف ، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [٤] ، فإضافة النار إلى جهنم زيادة في التهويل . وقد تضاف النار إلى الله ؛ لتحقيق معنى التفخيم، كما في قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾[٥] ، يقول الرازي: " الإضافة للتفخيم أي نار لا كسائر النيران ، فهي نارٌ لا تُخمد أبداً بأمره وقدرته عز وجل " [٦].

---

(٢) الزلزلة : ١

(٣) ينظر: الرازي- التفسير الكبير، م ١٦، ج٣٢، ص ٥٩.

(٤) البروج :١٠

(٥) البيّنة : ٦

(١) الهمزة : ٦

(٢) الرازي - التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣٢، ص ٩٥ ، وينظر: الألوسي- روح المعاني، ج٣٠، ص٤١٦.

والـلافت للنظر في الآية السابقة أن النار – في القرآن– لم تأتِ مضافة إلى الله إلا في هذا الموضع ، مما يُومئ إلى عِظَم الذنب المُرتكب الخاص بالـهمزة اللمزة الذي يجمع المال ظنَّاً منه بأنه سيخلد بماله هذا في الدنيا ولن يموت .

ومن الإضافة للتفخيم – أيضاً – قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ (1)، جاء في البحر المحيط: " وفي إضافة المقام إلى الرب تفخيم وتهويل عظيم واقع من النفوس موقعاً عظيماً " (2) .

وقد تجيء الإضافة للتسلية والمواساة، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ (3)، فإضافة رب إلى ضمير المخاطب الكاف العائد عليه – صلى الله عليه وسلم – فيها تسلية ، وفيها إشعار بقربه من الله سبحانه وتعالى، يقول الرازي: " كأنه تعالى قال: إنما فعلتُ بأصحاب الفيل ذلك ؛ تعظيماً لك وتشريفاً لمقامك ، فأنا كنت مربياً لك قبل قومك، فكيف أترك تربيتك بعد ظهورك ، ففيه بشارة له عليه السلام بأنه سيظفر" (4) .

---

(٣) النازعات : ٤٠

(٤) الأندلسي – البحر المحيط ، ج٨، ص ٤٢٣.

(٥) الفيل : ١

(١) الرازي– التفسير الكبير، م١٦، ج٣٢، ص ٩٩ ، وينظر: الشعراوي– المنتخب من تفسير القرآن الكريم ، ص١٠٥ وما بعدها .

وقد تكثف الإضافة من الدلالة فتضيف للمعنى صفة المبالغة والزيادة في التأكيد ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ [2] " فإضافة أحكم إلى الحاكمين، وأسفل إلى السافلين للمبالغة، والتقدير: كل من حكم، وأسفل كل من سفل " [3] .

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [4]، حيث قُيِّدت الجنات بالإضافة والوصف ، زيادةً في النعيم، وتأكيداً للخلود بالتأبيد [5] .

وقد ترد الإضافة أحياناً لأدنى ملابسة [6]، كما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [7]، جاء في الكشاف:" فإن (قلت): كيف صحَّت إضافة الضحى إلى العشية ، (قلت): لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما في نهارٍ واحد. . . فإن قلت: وما فائـدة الإضافة ؟(قلت) الدلالة على أنَّ مدة

---

(٢) التين : ٨

(٣) التين : ٥

(٤) ابن عاشور – تفسير التحرير والتنوير ، ج٣٠، ص٤٢٦.

(٥) البيّنة : ٨

(٦) البيضاوي– تفسير البيضاوي ،ج ٥ ، ص ٣٢٨.

(١) ينظر : محمود أحمد نحلة– دراسات قرآنية في جزء عم ، ص٢١٨ .

(٢) النازعات :٤٦

لبثهم كأنها لم تبلغْ يوماً كاملاً ، ولكن ساعةً منه عشيته أو ضحاه، فلما ترك اليوم أضافه إلى عشيته، فهو كقوله:(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا)"[1].

٣ – التعريف باسم الإشارة: يعرف اسم الإشارة بأنَّه " ما دلَّ على مسمّى، وإشارته إلى ذلك المسمّى " [2]، ويأتي التعريف به لتمييز المشار إليه أكملَ تمييزٍ وتحديده، ويختزن التعريف باسم الإشارة دلالات أسلوبية متعددة .

فقد يدلُّ على التعظيم في نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[3]، فقد جيء باسم الإشارة (أولئك) للدلالة على رفعة منزلتهم، وعلو درجتهم، والتعظيم من شأنهم، ويدل أيضاً على "كون المشار إليه جديراً بالمزايا والمكافآت المذكورة بعده"[4]، والمكافآت جاءت في قوله تعالى: ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [5] .

(٣) الزمخشري– الكشاف ، ج٤، ص٧٠٠.
(٤) ابن هشام– شرح شذور الذهب ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ص١٣٩.
(٥) البينة : ٧
(١) معين رفيق صالح– دراسة أسلوبية في سورة مريم ، رسالة ماجستير ، ص١٤٦.
(٢) البيّنة : ٨

وقد يأتي اسم الإشارة (أولئك) لتحقيق غرض التحقير، في نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾[1]، فجيء باسم الإشارة (أولئك) للتحقير من مكانتهم والإعراض عنهم ؛ وذلك بسبب عبثهم بالموازين الذي يشير إلى هضمِهم حقوقَ الناس . ولك أن تقول ذلك– أيضاً – في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾[2]، فقد أشار إليهم تحقيراً لهم ؛ بسبب كفرهم ودخولهم النار خالدين فيها، جاء في روح المعاني: " (أُولَٰئِكَ) إشارة إليهم باعتبار اتِّصافهم بما هم فيه من القبائح المذكورة، وما فيه من البُعد ؛ لبعد منزلتهم في الشر" [3].

ويسهم اسم الإشارة في تمييز المشار إليه وإحضاره في أذهان السامعين، ليكونوا أكثر تصوراً له كما في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾[4]، فبعد أن ذكر– سبحانه وتعالى – جزاء المؤمنين بأنَّ لهم الجنات، ذكر بعده اسم الإشارة ليميِّز ذلك الجزاء ويحدده، فهو" ذلك الفوز العظيم الذي لا فوز يشبهه"[5]. والأصل في هذه الآية أن يكون اسم الاشارة (تلك) لأنه عائد على الجنات، فلمَ العدول عن اسم الاشارة

---

(٣) المطففين : ٤

(٤) البينة : ٦

(٥) الألوسي– روح المعاني، م١٦، ج٣٠، ص٣٦٧.

(١) البروج : ١١

(٢) القرطبي– الجامع لأحكام القرآن ، م ١٩، ص٢٩٥.

(تلك) إلى اسم الاشارة (ذلك) ؟؟ ، يقول الرازي: " إنما قال ذلك الفوز، ولم يقل تلك لدقيقة لطيفة، وهي أنَّ قوله (ذلك) إشارة إلى إخبار الله تعالى بحصول هذه الجنات، وقوله (تلك) إشارة إلى الجنات، وإخبار الله تعالى عن ذلك يدل على كونه راضياً، والفوز الكبير هو رضا الله[1].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾[2] " ففي اسم الإشارة (ذلك) إشارة إلى ما ذُكر من عبادة الله تعالى بالإخلاص، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وما فيه من البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته في الشرف " [3] .

كما ويجيء اسم الإشارة للاستبعاد في نحو قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴾[4]، " فالآية حكاها الله تعالى عن منكري البعث، والمعنى (كرة) منسوبة إلى الخسران " [5]، فأفاد اسم الإشارة استبعاد حصول البعث وقد تضمن

---

(٣) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١ ، ص١٢٢.
(٤) البينة : ٥
(٥) الألوسي– روح المعاني ، م١٦ ، ج٣٠، ص٣٦٦.
(١) النازعات :١٢
(٢) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١ ، ص٣٨ .

لام البعد ليعين على تحقيق هذا الاستبعاد من جانب المنكرين، وهو أمر لا يتحقق باستخدام اسم الإشارة للقريب [1] .

٤- التعريف بالاسم الموصول: الأسماء الموصولة مبهمة، ولذا فهي " تفتقر إلى صلات تبينها وتوضحها ؛ لأنها لم تفهم معانيها بأنفسها " [2]، والأسماء الموصولة نوعان: مختص (الذي، التي، اللذان، اللتان، الذين، اللاتي، اللائي)، ومشترك:(أي، من، ما) وللموصول صلة ولا موصول بدون صلة؛ لأنها مناط الحكم وموضع الاهتمام .

وقد أفاد الاسم الموصول – في جزء عمّ – معاني بلاغية عديدة، فمن الصلة ما يكون للتهويل كقوله تعالى: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [3]، فهي " تدخل – أي النار– في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم، وتطلع على أفئدتهم، وهي أوساط القلوب ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشد تألماً منه بأدنى أذىً يمسه، فكيف إذا اطَّلعت عليه؟ " [4] .

وتكون الصلة مفيدة في إظهار صفة قوم، وفي بيان علة استحقاقهم لمصير معين، وهذا يكثر في الاسم الموصول (الذين)، ومن ذلك قوله عز من

---

(٣) ينظر : محمود أحمد نحلة- دراسات قرآنية في جزء عم ، ص٢١٩.

(٤) ابن الأنباري- أسرار العربية ، تح : محمد بهجت البيطار وأخوه ، ص ١٩٠ .

(٥) الهمزة : ٧

(١) الزمخشري- الكشاف،ج٤ ، ص٨٠٢.

قائل: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ (١)، فقد بيَّن – سبحانه – عملَ المطففين الذي استحقوا عليه هذا الوعيد، وهو تطفيف المكيال وبخسه، وعدم إيفاء حق المشتري.

ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ (٢)، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (٣) ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ (٤)، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ (٥) فصفة القوم (المكذبون، المطففون ، الكافرون بآيات الله وباليوم الآخر ، الساهون عن صلاتهم...) استحقت مصيراً واحداً وهو العذاب والويل .

وفي الاسم الموصول وتكراره دلالةٌ على الاهتمام والتوكيد ، ومن ذلك قولـه تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣ وَٱلَّذِىٓ

---

(٢) المطففين : ١

(٣) البيّنة : ٦

(٤) المطففين : ١٠-١١

(٥) الماعون : ٤-٧

(١) البلد: ١٩

أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ (1) ، فقد " كرر الاسم الموصول في قوله: والذي قدر وقوله والذي أخرج المرعى مع أن صاحب الصلة واحد، فلم يقل: (الذي خلق فسوى وقدر فهدى وأخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى) للاهتمام بمدلول كل صلة من الصلات الثلاث ، واستقلال كل واحدةٍ منها في الدلالة على استحقاق التسبيح وعلى نوع الإيجاد فمقام البيان اقتضى الإطناب" (2)، وهو من الإطناب المُركز فالزيادة في كل صلة تختزن دلالات تختلف عن سابقتها، وفي النهاية نصل إلى حقيقة مفادها أنَّ الخالق واحد، هو الربُّ المستحق للتسبيح والحمد، صاحب العطايا والنعم الكثيرة، هي تلك التي جاءت بعد الاسم الموصول .

ويلجأ القرآن الكريم إلى الاسم الموصول لتحقيق معنى التحقير، كما في قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾(3)، يقول القرطبي في الجامع: " أرأيت الذي ينهى وهو أبو جهل (عبداً) وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فإن أبا جهل قال: إنْ رأيتُ محمداً يصلي لأطأنَ عنقه، قال أبو هريرة: فأنزل الله هذه

---

(2) الأعلى :1-5

(3) ابن عاشور- التحرير والتنوير ،ج30، ص276، وينظر : فاضل صالح السامرائي- لمسات بيانية، ص152.

(1) العلق : 9

الآيات تعجباً منه" [1]، فقد أعرض القرآن عن ذكره باسمه وآثر التعبير عنه بالاسم الموصول تعريضاً وتحقيراً من شأنه.

ويأتي الاسم الموصول للتعليل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [2]، فالموصول وصلته في معنى التعليل لموجب العبادة [3] .

٥- التعريف بالضمائر: يُعد الاختصار وعدم الحاجة إلى التكرار من فوائد التعريف بالضمائر، وهو أحد أشكال التكثيف حيث تستبدل الضمائر بالكلمات الظاهرة، ومن ذلك:

أولاً: ضمير الشأن

وهو ضمير لا يعود على سابق له، يقع في صدر الجملة ويكون مبتدأً وخبره جملة اسمية في الغالب وقد يكون في خبره جملة فعلية .

---

(٢) القرطبي- الجامع لاحكام القرآن ، م ٢٠، ص١٤٦ .

(٣) قريش : ٤

(٤) ينظر : الشنقيطي – أضواء البيان ، ج٩، ص٣٥٤ .

ولضمير الشأن أهمية عظيمة في لغتنا العربية، لأنه يفيد التعظيم والتفخيم وهو يُذكر حين يُراد الاهتمام بالأمر أو الحدث، جاء في شرح المفصل " اعلم أنَّهم إذا أرادوا ذكر جملة من الجمل الاسمية أوالفعلية، فقد يقدمون قبلها ضميراً يكون كناية عن تلك الجملة، وتكون الجملة خبراً عن ذلك الضمير وتفسيراً له، ويوحدون الضمير؛ لأنهم يزيدون الأمر والحديث، لأن كل جملة شأن وحديث، ولا يفعلون ذلك إلا في مواضع التفخيم والتعظيم "[1].

وقد ورد ضمير الشأن في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[2]، فجيء بضمير الشأن (هو) ؛ لأن المقام مقام تعظيم وتفخيم ، وتكمن البلاغة في ضمير الشأن " من جهة إضماره أولاً ، وتفسيره ثانياً؛ لأنَّ الشيء إذا كان مُبهماً فالنفوس متطلعة إلى فهمه ولها تشوق إليه، فلا يكاد يرِد إلا في المواضع البليغة المختصة بالفخامة " [3] ، فالآية تتضمن أمراً مهماً وهو وحدانية الله – عز وجل – فهو الواحد المُنزه عن التركيب والتعدد، فجاء الضمير مقدِماً وممهِداً للذات الإلهية، على نحو يلفت الأبصار والشوق نحو الاسم الإلهي (الله) الذي ذكر في هذا المقام، ويلاحظ مجيء الخبر (جملة اسمية) للإفادة من دلالتها على الديمومة والاستقرار، فوحدانية الله حالة ثابتة مستقرة .

---

(١) ابن يعيش – شرح المفصل ، ج٣ ، ص١١٤.
(٢) الإخلاص : ١
(٣) العلوي– الطراز ، ص٢٧٠.

ثانياً: الإظهار في موضع الإضمار

وهو مبحث عظيم دقيق المسلك جميل المعاني ، ويكون حين " يُراد الاهتمام بالأمر اهتماماً خاصاً فيعاد الاسم مرة ثانية دون ضميره لإعادة تصوره " (١) ، أو لإلقاء المهابة في نفس السامع، أو لزيادة التقرير وتمكين المعنى، وقد يَرِد " لتعظيم حال الأمر المُظهر والعناية بحقه، أو يَرِد على جهة الإنكار وشدة الغضب،أو للتهكم والتعجب " (٢) .

فحين تقرأ قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (٣)، يلاحظ بأنَّ سبحانه لم يقل (إنهم لفي نعيم) ، بل جاء إظهار (الأبرار) في موضع الإضمار؛ لأن الأبرار هم محور الحديث، فالآية تتحدث عن جزاء الأبرار ، فجاء الإظهار لزيادة التقرير، وتمكين المعنى في نفس المخاطب بأنَّ من يستحق هذه المكانة العالية والدرجة الرفيعة هم (الأبرار) أهل الصدق والطاعة .

---

(١) محمود أحمد نحلة – دراسات قرآنية في جزء عم، ص٢١١.

(٢) العلوي– الطراز، ص٢٧٣.

(٣) المطففين :١٨ –٢٢.

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾[1] ، وقع الإظهار في موقع الإضمار للمبالغة في الأمر المُظهر وإظهار الفخامة فيه ، " فالأصل (ما هي) أي: أيُ شيءٍ هي على التعظيم لشأنها ، والتهويل لها ، فوضع الظاهر موضع الضمير لأنه أهول لها " [2] ، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴾ [3]، فأظهر الحطمة لإظهار هولها وشدة عذابها .

وجاء الإظهار في موضع الإضمار في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴾[4] تحقيقاً للعناية بحق هذه (الليلة العظيمة) والدراية بفضلها ومنتهى علو قدرها ، " فصرح بليلة القدر وكان حق الكناية رفعاً لمنزلتها، فإنَّ الاسم قد يُذكر بالصريح في موضع الكنايةِ تعظيماً وتخويفاً " [5] .

---

(١) القارعة :١-٣
(٢) البيضاوي- تفسير البيضاوي ، ج٥ ، ص٢٣٩.
(٣) الهمزة ٤-٦
(٤) القدر :١-٣
(١) الكرماني- البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص٢٠٠.

أما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ [1]، فجاء إظهار (الناس) في موضع الإضمار للتقرير بقدرة الخالق فهو الربُ المالكُ الإله المستحقُ للعبادة، وللإشعار بشرف الإنسان" ففيه تقوية رجاء العبد بربه بأنَّه سبحانه بربوبيته سيحمي عبدَه لعبوديته، ويُعيذه مما استعاذَ به منه " [2].

يقول الزمخشري في هذا المقام " فإن (قلت): هلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذي هو (الناس) مرةً واحدة ؟ (قلت): لأنَّ عطفَ البيانِ للبيانِ ، فكان مظنَّة للإظهار دون الإضمار " [3]، وهو على ذلك – عند الزمخشري – يسهم في زيادة البيان والكشف عن المُراد .

ثالثاً : الانتقال بين الضمائر (الالتفات)

يُعد الانتقال بين الضمائر من الالتفات، حيث ينتقل في الكلام من صيغةٍ إلى صيغة، ومن خطاب إلى غيبة ومن غيبة إلى خطاب إلى غير ذلك من أنواع الالتفات، وتتحقق أهمية الالتفات في كونه وسيلة قوية في " إيقاظ السامع عن الغفلة وتطريباً له بنقله من خطاب إلى خطاب آخر، فإنَّ السامع ربما ملَّ من

---

(٢) الناس :١-٣
(٣) الشنقيطي- تتمة أضواء البيان ، ج٩، ص٣٥٥ .
(٤) الزمخشري- الكشاف ، ج٤ ، ص٨٢٨-٨٢٩ .

أسلوب فينقله إلى أسلوب آخر تنشيطاً له في الاستماع واستمالة له في الإصغاء إلى ما يقوله " [1] .

وورد الالتفات في مواضعَ متعددة في هذا الجزء، ومن أمثلة ذلك: الانتقال من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾[2] ، هذا الالتفات الذي يُشعر بالتحول المفاجىء في أسلوب كلام الله سبحانه نحو المواجهة المباشرة مع المشركين ، وذلك " ارتقاءً في المواجهة بالتهديد حتى لا يبقى مجال للالتباس المراد من ضمير الغيبة " [3] ، جاء في تفسير البيضاوي: " ومجيئه على طريقة الالتفات للمبالغة " [4] ، وفي البحرالمحيط : " وفي خطابهم بذلك على طريقة الالتفات توبيخ لهم وشدة غضب عليهم " [5] ، فانظر ما حققه الالتفات من تقريع وتوبيخ وإهانة ومبالغة في العذاب والتهديد، وإشعار بغضب الله وسخطه على الكافرين، بالإضافة إلى أنَّ من شأن الالتفات أن يصدم المتلقي؛ لينبه إلى أنَّ الكلام وإن كان عن غائب، فقد

---

(١) العلوي- الطراز ، ص٢٦٦.
(٢) النبأ :٢٧-٣٠
(٣) ابن عاشور- التحرير والتنوير، ج١٦، ص١٤٩.
(٤) البيضاوي- تفسير البيضاوي ،ج٥، ص٢٠٨.
(٥) الأندلسي- تفسير البحر المحيط ،ج٨ ، ص٤١٣، وينظر : الصابوني- صفوة التفاسير، القسم العشرون، ص ١٠.

يكون لك (أنت أيها المخاطب) وفي ذلك إقحامٌ للمخاطب في صورة العذاب، فتكون صورة العذاب أشدّ وأردعَ في نفسه .

وورد الالتفات – كذلك– بالانتقال من الغيبة إلى الخطاب ، في قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾[1] ، فجاء الالتفات " تنبيهاً للرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى العناية بشأن الأعمى مع نقلٍ للكلام من مرتبة الملام إلى مرتبة العتاب الرقيق" [2]، فلم يقل له (عبست وتوليت) حتى لا يعرضه إلى ضمير المواجهة في عبس وتولى، وليتلطف على الرسول تلطفاً يظهر من أسلوب الخطاب في السورة [3] .

وجاء الالتفات في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴾[4] للتوبيخ، يقول الصابوني: " فيه التفات من ضمير الغائب إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب، والأصل (بل لا يكرمون) " [5]، ولعل الصابوني اعتمد في ذلك على ما قاله القرطبي في الجامع ، " وقرأ أبوعمرو ويعقوب

---

(١) عبس : ١–٣

(٢) محمود أحمد نحلة– دراسات قرآنية في جزء عم ، ص ٢٠٩.

(٣) ينظر :الشعراوي – المنتخب من تفسير القرآن الكريم ، ص١٦٠.

(٤) الفجر :١٥–١٧

(١) الصابوني– صفوة التفاسير ، القسم العشرون، ص٥٨.

(يكرمون) و(يحصنون) و(يأكلون) بالياء ؛ لأنه تقدم ذكرالإنسان والمُراد به الجنس ، مُعَبَّر عنه بلفظ الجمع الباقون بالتاء في الأربعة على الخطاب والمواجهة، كأنه قال لهم تقريعاً وتوبيخاً " [1] .

وفي قوله عز وجل: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴾ [2]، خطاب للإنسان على طريقة الالتفات أي فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بعد هذا البيان ، وبعد وضوح الدلائل والبراهين؟ [3]، فالالتفات زيادة في التوبيخ والعتاب . ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴾ [4]، وقع الالتفات – هنا – في قوله: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴾ من الغيبة إلى الخطاب، وهذا الكلام " واقع على طريقة الالتفات للإنسان؛ تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان " [5].

وانظر ما يحققه الالتفات من إيقاظ للسامع في قوله تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣

---

(٢) القرطبي– الجامع لأحكام القرآن ، م ٢٠ ، ص٥٢ .
(٣) التين : ٦–٧
(٤) الصابوني– صفوة التفاسير ، القسم العشرون، ص٧٨.
(٥) العلق : ٦–٨
(٦) الرازي – التفسير الكبير ، ج١٦ ، م٣٢، ص٢٠.

﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴾ [١]. إنَّ الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ظاهرٌ في قوله (وما أدراك)، فلم يقل (وما أدراه) تفخيماً وتهويلاً للموقف، وإيقاظًا للسامع ولفت انتباهه إلى ماهيَّة الحُطمة، إنَّها النَّار الموقدة التي لا يطفئها غير الله[٢].

ويلاحظ مما سبق تعدد خيارات التعبير القرآني في أسلوب التعريف، وذلك باستخدام وسائل مختلفة، يظهر من خلالها اختزان كل واحدة من هذه الوسائل لدلالات أسلوبية تسهم في زيادة المعنى وإبرازه على الوجه المطلوب .

– ثانياً : التنكير

النكرة "ما دلت على شيء لا بعينه " [٣]، فهي على هذا تفيد التعميم لا التخصيص ، وليس التعميم الغرض الوحيد الذي تؤديه النكرة ، بل للنكرة أغراضٌ بلاغية: كالتعظيم والتكثير والتحقير والتقليل والتهويل ...

ومن النكرة الدالَّة على التهويل، ما يُرى في ألفاظ السُخط والعذاب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾[١]، وقوله عز وجل: ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[٢]

---

(١) الهمزة : ١–٥

(٢) ينظر : القرطبي – الجامع لاحكام القرآن ، م٢٠، ص ١٨٤–١٨٥.

(٣) العلوي – الطراز ، ص٢٠٨ .

وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[٣] وقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[٤]، فكلمة (ويل) لم ترد إلا نكرة في سبعةٍ وعشرين موضعاً [٥] في القرآن الكريم، أربعة منها ذُكرت في جزء عمّ، وقد قُصد بتنكيرها المبالغة والتهويل فيما ينتظرهم من سوء العقاب دون حدود أو تحديد .

ووقع التنكير – أيضًا – في كلمة (جحيم)، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[٦]، إذْ وردت لفظة (الجحيم) في جزء عمّ في ستة مواضع ، كلها معرفة إلا في هذا الموضع فقد جاءت نكرة، وإليك هذه المواضع: قال تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ [٧]

﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [٨]

﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾[١]

---

(١) المطففين : ١
(٢) المطففين :١٠
(٣) الهمزة : ١
(٤) الماعون :٤
(٥) ينظر : محمد عبد الباقي – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ص٧٦٨-٧٦٩ .
(٦) الانفطار :١٤
(٧) النازعات :٣٦
(١) النازعات :٣٩

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (٢)

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ (٣)

ولعل مرد ذلك – والله تعالى أعلم – أنَّ لفظة (الجحيم) بالتعريف تجيء للدلالة على جنسيتها، فهي تلك النار التي يُعذب فيها من نال غضب الله وسخطه ، وأما لفظة (جحيم) بالتنكير ، فقد جاءت في إطار المقابلة مع نعيم ، فليس المقصود بـ(جحيم) النار ذاتها فحسب ، بل جحيم في كل شيء في حياتهم ومأكلهم ومشربهم وملبسهم ، وفي كل ما ينظرون إليه من حولهم كله جحيم بجحيم ، فهي مع معنى التعميم حملت معنى التهويل ، يقول الزمخشري: " ففيها إنذار وتهويل وقسوة للعصاة ولطف للمؤمنين " (٤) ، فالتنكير – هنا – وسع من دلالات اللفظ، ومما يرد تحت هذا الباب أيضاً لفظة (نار) في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾(٥)وقوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ (٦)، وقوله – عز وجل– ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾(٧)، فلفظة (نار) بالنكرة تهويل

---

(٢) التكوير :١٢

(٣) المطففين:١٦

(٤) التكاثر :٦

(٥) الزمخشري – الكشاف ،ج٤، ص٧١٧ .

(٦) القارعة :١١

(١) المسد :٣

(٢) الليل :١٤

لها، وليس هذا فحسب بل فوق هول هذه النار تُوصف بصفات متنوعة تزيد في إيقاع الرهبة في نفوس الناس فهي (حامية ، وذات لهب ، ومؤصدة مغلقة ، وتلظى) وفي هذا التنويع تأجيجٌ لذكرها وتفزيع لسامعيها فلا يألفها القلب والسمع، فلو كان لها وصفٌ واحد يتردد في القرآن كلِه لضاعَ عنصرُ التخويف والترهيب منها؛ لضياع تأثيرها ووقعها في النفس، ولكن تعدد دركات النار وصفاتها يبقي الأذهان والنفوس وجلة متأهبة، فبالتكثيف تتنوع الصفات وتتسع الدلالات لتحيط بإطار الصورة المرسومة، وتحقق عنصر التخويف المتجدد الذي لا يقف عند حد أو نهاية .

جاء في تتمة أضواء البيان في قوله تعالى: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾[1]: "وكان يكفي (تَصْلَىٰ نَارًا) ، ولكن إتباعها بوصفها حامية فهو زيادة في إبراز عذابهم وزيادة في غشيان العذاب لهم " [2]، ويقول الرازي في هذا المقام أيضاً: "وقوله (نَارًا حَامِيَةً) تنبيه على أن نار الدنيا في جنب تلك ليست بحامية " [3] وكذا الأمر في لفظة (سَعِيرًا) في قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ ﴾[4].

---

(٣) الغاشية :٤

(٤) الشنقيطي – تتمة أضواء البيان ، ج٩، ص١١٣.

(٥) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣٢ ، ص ٧٢ .

(١) الانشقاق :١٢

ولنتأمل كيف دلّ التنكيرعلى التعظيم والتكثير في قوله تعالى: ﴿ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴾[1] فالنكرة في (أعناب) " تدل على تعظيم حال الأعناب"[2] وتكثيرها، ونظير ذلك قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾[3]، يقول الزمخشري: "والتنكير في جوع وخوف لشدتهما يعني أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما وآمنهم من خوف عظيم " [4]، فيحمل التكثيف هدف التنكير وهو بيان أنه –عز وجل– حماهم من كل أنواع الخوف أو مراتبه ، وكذا الجوع بالأدنى منه والأشد؛ ليصِّور أو ليبرز عظيم الامتنان عليهم.

وفي قوله تعالى ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴾ [5]، وقوله تعالى ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾[6]، دلت النكرة (نفس) على العموم الذي يستغرق كل أفراد الجنس ، فكأنه قال: (علمت كل نفس) بما فعلت من خير أو شر ، وشبيه

---

(٢) النبأ :٣٢

(٣) الرازي– التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١ ، ص٢١ .

(٤) قريش : ٤

(٥) الزمخشري – الكشاف ،ج٤، ص٨٠٧ ، وينظر : الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣٢ ، ص١١١.

(١) التكوير : ١٤

(٢) الانفطار : ٥

ذلك قوله عز وجل ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[1]، ففي تنكير (شر) " دخل في السورة كل شرٍ يُتوقى ويتحرز منه ديناً ودنياً " [2].

ودلّ التنكير في قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾[3] على التكثير، أي أهلك مالاً كثيراً ، ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾[4]، فلم يقل سبحانه (الطير الأبابيل) ؛ وذلك لكثرتها فهي جماعات جماعات متتابعة بعضها في إثر بعض محيطة بهم من كل جانب [5]، ونحو ذلك أيضاً قوله عز وجل: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾[6]: " أي عيوناً غاية في الكثرة " [7]، فكأنه قيل كم من عيون جارية في الجنة ... كثيرةٌ هي ، ويقول ابن كثير في هذه الآية: " أي عينٌ سارحة وهذه نكرة في سياق الإثبات ، وليس المرادُ عيناً

---

(٣) الفلق :٢

(٤) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣٢ ، ص١٩٦ .

(٥) البلد : ٦

(٦) الفيل : ٣

(٧) ينظر: الصابوني– صفوة التفاسير، القسم العشرون ، ص ١٠٤ .

(٨) الغاشية : ١٢

(٩) الزمخشري– الكشاف،ج٤، ص٧٤٦.

واحدة ، وإنَّما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات " (١) ، فمن شأن التكثيف – أحياناً– الدلالة على التكثير حيث تختزن الكلمة معنى الكثرة .

وفي الآية التالية جاءت كلمة (يسراً) نكرةً للدلالة على التفخيم والتعظيم، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾(٢) ، جاء في الكشاف: " فإنْ(قلتَ): فما معنى التنكير (قلتُ): التفخيم ، كأنَّه قيل إنَّ مع العسر يسراً عظيماً وأي يسر " (٣)، ولعل تعريف العسر وتنكير اليسر يُوحي بالبون الشاسع بينهما ؛ ليبرزَ عظيم الفرجِ وما يحمله من بشارات، وضيق العسر الذي يضيق على صاحبه، فيتلهف إلى اليسر .

وقد تحمل النكرة معنى التفضيل والتخصيص، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾(٤)، فالتنكير في (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) وهي: عشر ذي الحجة، تخصيصٌ بفضيلة هذه الليالي عن غيرها، وقد استقلت بالتنكير عنْ باقي ما أقسم به الله –عز وجل – فكلها جاءت مُعرَّفة إلا قولَه: (ليال عشر) ، يقول الزمخشري: " فهلا عرَّفت بلام العهد ؛ لأنها ليال

(١) ابن كثير– تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص٥٠٣ .
(٢) الشرح : ٥
(٣) الزمخشري – الكشاف ، ج٤، ص٧٧٧ ، وينظر : الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١ ، ص٧، والبيضاوي– تفسير البيضاوي– ج٤ ، م٥ ، ص٣٢١.
(٤) الفجر : ١ –٤

معلومة معهودة ؟ (قلت): لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير" [1]، فانظر الدلالة التي اختزنها استخدام التنكير في هذا الموضع .

ويبقى للسياق الدور الحاسم في بيان الدلالة التي يفيدها التنكير، فقد يدل التنكير على أكثر من دلالة، كما هي الحال في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾[2] ، فلفظة (خسر) تحتمل دلالة التهويل أوالتحقير ، يقول الرازي: " إنما قال: لفي خسر ولم يقل: لفي الخسر ، لأنَّ التنكير يفيد التهويل تارةً والتحقير أخرى ، فإنْ حملنا على الأول كان المعنى أنَّ الإنسان لفي خسرٍ عظيم لا يعلمُ كنهَهُ إلا اللهُ ، وتقريره أنَّ الذنب يعظُم بعِظَمِ منْ في حقه الذنب ، وإنْ حملنا على الثاني: كان المعنى أنَّ خُسران الإنسان دونَ خُسران الشيطان ، وفيه بشارةٌ أنَّ في خلقي منْ هو أعصى منك، والتأويل الصحيح هو الأول " [3]، ورجَّح ابن عاشور ما رجَّحه الرازي ، إذْ دلت النكرة – عنده – على معنى التهويل والتعظيم، حين قال: "والخسرُ انتقاصُ المالِ وضياعُ ما يتمتع به، وتنكيره للتعظيم بقرينة المقام المُؤَكَد بالقسم"[4].

---

(١) الزمخشري – الكشاف ،ج٤، ص٧٤٩.

(٢) العصر : ٢

(٣) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣٢ ، ص٨٨ .

(١) ابن عاشور – التحرير والتنوير ، ج ٣٠، ص٥٣٢ .

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ (١)، تحتمل النكرة في (مالاً) التقليل تارة ، والتعظيم تارة أخرى ، فمالُ الإنسان الواحد بالنسبة إلى مال كلِ الدنيا قليل حقير ، فكيف يفتخر بماله القليل ، وعلى معنى التعظيم فماله المجموع بلغ في الخبث والفساد أقصى النهايات " (٢) .

ولعله يتضِّح مما سبق قدرة أسلوب التنكيرعلى تكثيف الدلالة بوساطة الاتِّساع بمعنى أنَّه يُعدد من التأويلات والاحتمالات ، وبهذا يمكن القول إنَّ التنكير من إحدى وسائل تكثيف المعنى .

---

(٢) الهمزة : ٢

(٣) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١ ، ص٩٤ .

الفصل الثاني

التقديم والتأخير

يشكل التقديم والتأخير ظاهرةً أسلوبية ، يكمن وراءها معانٍ بلاغية مهمة ولفتات جمالية بارزة، وهو " أنْ يعمد المتكلم إلى (مورفيم) حقه التأخير فيما جاء عن العرب فيقدمه ، أو إلى ما حقه التقديم فيؤخره ؛ طلباً لإظهار ترتيب المعاني في النفس " (١).

يقول – فيه– الجرجاني: " كثير الفوائد، جمُّ المحاسن ، واسع التصرف، بعيد الغاية ، ولا يزال يفتر لك عن بديعه ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أنْ راقك ولطُف عندك ؛ أنْ قُدم فيه شيء ، وحُول اللفظ عن مكان إلى مكان " (٢).

وتكمن أهمية التقديم والتأخير في انتهاكه لنظام الرتبة النحوية، فيتم فيه تحريك الكلمات من أماكنها الأصلية إلى أماكنَ أخرى جديدة، فيقدم ما حقه التأخير كـ (الخبر، والمفعول به) ، ويؤخر ما استحق التقديم كـ (المبتدأ ، والفعل) ؛ ويكون ذلك لغرض فني أو جمالي يراد تحقيقه (٣).

---

(١) خليل عمايرة – في نحو اللغة وتراكيبها ، ص٨٨.

(٢) الجرجاني – دلائل الإعجاز ، ص١٠٦.

(٣) ينظر : أميمة الرواشدة – شعرية الانزياح ، ص١٨٧.

ولا شك أنَّ تقديم الألفاظ والعبارات أو تأخيرَها، يُسهم إلى حدٍ كبير في الكشف عن خبايا النفوس وسبْر أغوارها، وفيها توجيه للمعنى؛ ليحدث المخاطِبُ الأثر الذي يشاء في المخاطَب، فتختزن هذه الآلية دلالات خاصة تختلف باختلاف السياق، وحينما يُذكر التقديم يُذكر التأخير؛ فكل تقديم يليه تأخير، ويجدر التنويه إلى أن الباحث قد جمع في دراسته لظاهرة التقديم والتأخير بين المنظور النحوي الذي يهتم بالدلالة التي تنتجها الانزياحات في البنية المألوفة ، وبين المنظور البلاغي الذي يركز على إنتاج الدلالة بصرف النظر عن بناء الجملة المُتبع سواء أكان معيارياً أو انزياحياً .

ومن ذلك تقديم المسند إليه على المسند لتقديم الحكم أو الاختصاص، في نحو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ (١)، حيث دلّ تقديم المسند إليه على تقوية المعنى وعلى اختصاص (أولئك) والمقصود بهم منْ يقومون بالأعمال ويتصفون بالصفات التي سبقت هذه الآية من (فك للرقاب، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، والإيمان، والصبر) وعلى اختصاص المؤمنين بالميمنة (الجنة) دون غيرهم من الكافرين المكذبين .

---

(١) البلد : ١٨ .

كما أنَّ في تقديم المسند إليه – هنا– مزيداً من الضمانة في حدوث الوعد " وذلك أنَّ من شأنٍ منْ تَعِدُه وتضمَن له، أنْ يعترضه الشكُ في تمامِ الوعدِ وفي الوفاء به، فهو أحوج شيء إلى التأكيد " (١) .

وقد يُحدث تقديم المسند إليه بعد إذا الشرطية ؛ تهويلاً قد لا نجده في تأخيره، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴾ (٢)، وقوله عز وجل: ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴾ (٣)، فتقديم المسند إليه في مثل هذه الآيات أحدث هِزةً في نفس السامع ، جعلته يلتفت إلى أمرٍ مهم يُتوقع حصوله ، فهذه المظاهر لم يرها الإنسان مِنْ قبل ، ولا مرت به حال مثل هذه الحال ، فيحقق التقديم – هنا– ذلك الأثر الرهيب في النفس، ويعاونه في ذلك بناء الأفعال على صيغة المبني للمجهول ؛ للتركيز على الحدث نفسه لا القائم بالحدث، فالقرآن الكريم

(١) الجرجاني– دلائل الإعجاز ، ص١٣٤ .
(٢) الانفطار : ١ – ٤ .
(٣) التكوير : ١–١٣ .

دقيق في وضع الألفاظ ورصفها بعضها إلى جانب بعض ، كلُ ذلك بحسب سياق الكلام والجمال العام في التعبير؛ ليخرجَ بأبهى صورة وأظهر وأدق معنىً .

ويتقدم الظرف أوالجار والمجرور على المسند إليه- وهو إحدى طرق القصر-لإعطاء معنى الاختصاص والتوكيد، كما في قوله عز وجل: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[1]، ففي التقديم تخصيص للمحاسبة الفردية الخاصة بكل واحد من الأصناف السابقة التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾[2] .

وهذه المحاسبة لكل فرد لا تتعدى أعمال غيره من أهله وأقرانه وأصحابه، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ﴾[4]، فكل واحد مشغول بنفسه يفكر في عاقبة أمره .

---

(١) عبس : ٣٧

(٢) عبس : ٣٤ -٣٦ ، وينظر: سر الترتيب في هذه الآية - الكتاب نفسه ص١٠٣.

(٣) البقرة : ٤٨

(٤) الأنعام :١٦٤

ومن ذلك أيضاً– قوله تعالى: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾[1]، ففي تقديم المسند (شبه الجملة) على المسند إليه، تخصيصُ للعين والسرر بالجنة وأصحابها، وأنها ليست كأي عيون أو سرر، فهي عيونٌ في غاية الكثرة، وسرر مرتفعة (من رفعة المقدار أو السُمْك) ؛ ليرى المؤمنُ بجلوسه عليه جميع ما خوله ربه من الملك والنعيم [2]. فهذا التقديم الذي يحمل دلالة اختصاص الجنة بأهلها، يوحي بأشكال النعيم وألوانه الخاصة بهم وتعمق الإحساس بالصورة المرسومة ، وهنا يبرز التكثيف الذي تبناه أسلوب التقديم .

وفي الأصل يتقدم المسند إليه أولاً، يليه المسند فما عداهما " فهو متعلقات وتوابع تأتي تالية في الرتبة، ولكن قد يعرض لبعض الكلم من المزايا والاعتبارات ما يدعو إلى تقديمها " [3] ، ومن ذلك تقديم الظرف (يومئذٍ) على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾[4]، وقوله تعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾[6]، ويأتي تقديمه للاختصاص ، فحالة هذه الوجوه مختصة بيوم القيامة فإنَّ الوجوه الضاحكة وجوهُ

---

(١) الغاشية :١٢ –١٣

(٢) ينظر : الزمخشري – الكشاف، ج٤، ص٧٤٦ .

(٣) الهاشمي – جواهر البلاغة ، ص٩٠ .

(٤) عبس : ٣٨

(٥) الغاشية : ٢

(٦) الغاشية : ٨

أهلِ الجنة الخاصة بذلك اليوم، أما في الدنيا فربما لم تعرف وجوههم النعيم والنضارة، وكذلك الحال مع أصحاب الوجوه الخاشعة الذليلة فربما كانت من أنضر الوجوه في الدنيا، ففي هذا اليوم تُضاء وجوهٌ وتتهللُ كالصبحِ إذا أضاءَ، وتسودُّ وجوه وتَغبرُّ ، ولا ترى أوحشَ من اجتماع السواد والغبرة ، وما كان ذلك إلا لجمعهم بين الفجور والكفر[1] ، فمقاييس الآخرة تختلف عن مقاييس الدنيا .

وقد يتقدم المفعول به على الفعل والفاعل، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ [2]، ففي تقديم كلمة (كل) إشارة إلى عموم كل شيء يقوم به الإنسان من صغيرة أو كبيرة ، حيث تُرصد أعماله في كتابه لتعرضَ هذه الأعمال يوم القيامة، جاء في البحر المحيط: "وكل شيء عام مخصوص، أي كل شيء مما يقع عليه الثواب والعقاب " [3].

ففي هذا التقديم تركيزٌ على الشيء المُحصى لا طريقة الإحصاء، المهمُ هو الأعمال فانظر ما حققه التقديم في توجيه الأنظار إلى العمل وأهميته في الميزان، وهذا من شأنه أنْ يدفع المرء إلى الاهتمام بكل أعماله (كل شيء)

---

(١) ينظر : الزمخشري – الكشاف ،ج٤، ص٧٠٦.

(٢) النبأ : ٢٩

(٣) الأندلسي – البحر المحيط ، ج٨ ، ص٤١٥.

صغيرة كانت أم كبيرة، كما أن في الآية " دلالة على كونه - عز وجل- عالم بالجزيئات "[١].

ومن المعاني البلاغية التي يقدم المفعول به لأجلها، ما يعطي فائدة الاهتمام به إذا كان نصب عين المتكلم، أو إذا كان الحديث عنه، في نحو قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾[٢]، و﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾[٣]، فالآيات وردت في إطار التدليل على قدرة الله - عز وجل - من خلال خلقه ومخلوقاته ، فقُدِّمَت الأرض والجبال للتركيز عليهما .

وقد يأتي تقديم المفعول به للتوجيه والإرشاد، كما في قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[٤]، إذ " ليس المقصود بهذه الآيات جواز قهر غير اليتيم ونهر غير السائل، وإنما هو من باب التوجيه ، فإن اليتيم ضعيف وكذلك السائل، وهما مظنة القهر، فقدمهما للاهتمام بشأنهما ، والتوجيه إلى عدم استضعافهما " [٥] .

---

(١) ينظر : الرازي- التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١، ص١٩.
(٢) النازعات :٣٠
(٣) النازعات :٣٢
(٤) الضحى : ٩ - ١٠
(٥) فاضل صالح السامرائي- التعبير القرآني ، ص٥٠ .

ومن الظروف ما يتقدم لنفي المكافأة والمساواة عن ذات الله – عز وجل – كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[1] جاء في الكشاف: " فإن(قلتَ): الكلام العربي الفصيح أنْ يؤخرَ الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم ... فما باله مقدماً في أفصح كلام وأعربه ؟(قلتُ): هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبُّه ومركزه هو هذا الظرف، فكان لذلك أهم شيء وأعناه وأحقه بالتقدم وأحراه" [2].

ولا يقتصر التقديم والتأخير على جانب تركيب الجملة أوالتركيب الإسنادي، وإنَّما يتعداه إلى أنماط أخرى تناولها بعض المفسرين والباحثين*، وهو ما يسمى بالتقديم المعنوي وهو التقديم الذي يكون فيه ترتيب الألفاظ تابعاً للمعاني ، أي " أنْ يقدم والمعنى عليه أو يقدم وهو في المعنى مؤخر أو بالعكس "[3]، ومن صوره: تقديم الواحد على الاثنين، والأشرف على الأقل شرفاً، والسبب على المسبب، والأسبق بالوجود على ما بعده، والأعلى على الأسفل ...إلخ .

---

(١) الإخلاص : ٤

(٢) الزمخشري- الكشاف، ج٤، ص٨٢٣-٨٢٤.

* نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : من المفسرين : الرازي ، البيضاوي ، ومن الباحثين : فاضل السامرائي .

(٣) الزركشي- البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص٢٧٩.

ومن أمثلة ذلك، تقديم الأشرف على الأقل شرفاً ، في قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ (١)، فانظر " كيف ذكر طعام الإنسان من الحب والفواكه أولاً، ثم ذُكِر طعام الأنعام بعده ، وهو الأبّ: أي التبن، فناسب تقديم الإنسان على الأنعام" (٢) .

وقد يُراعى اشتقاق اللفظ بوضع الكلمة في موضعها المناسب، فترى كلمة (التقديم) سابقة لكلمة (التأخير)(٣)، كقوله تعالى: ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾(٤) فهو ترتيب خاضع للمألوف، وهناك ترتيب آخر يُعدل فيه عمّا هو مألوف، كتقديم الآخرة على الأولى، في قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾(٦)، وقوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴾ (٧) .

---

(١) عبس : ٣١- ٣٢

(٢) فاضل السامرائي – التعبير القرآني ، ص٦٣.

(٣) حميد العامري- التقديم والتأخير ، ص١٤٦ .

(٤) الانفطار : ٥

(٥) النازعات :٢٥

(٦) الضحى :٤

(٧) الليل :١٣

فالمألوف تقدُم الأولى على الآخرة، وقد فطنت بنت الشاطئ إلى حقيقة التقديم والتأخير في هذه الآيات، ففي قوله تعالى: (وإن لنا للآخرة والأولى)، تقول: "وليس التعلق برعاية الفاصلة هو الذي اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى، وإنما اقتضاه المعنى في سياق البشرى والنذير، إذْ الآخرة خير وأبقى وعذابها أكبر وأشد وأخزى وأبقى، وأنَّ الآخرة هي دار القرار، وكذلك قُدمت الآخرة على الأولى في سياق البشرى للمصطفى عليه الصلاة والسلام بآية الضحى (وللآخرة خير لك من الأولى)، كما قدمت الآخرة على الأولى في سياق الوعيد لفرعون إذْ أدبر وتولى: (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) بآية النازعات[1] .

ومن التقديم الذي جاء مُرتباً من الأعلى للأسفل، قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴾[2] ففي هذا التقديم المرُتب إشارة واضحة إلى قلب الكون رأساً على عقب .

جاء في التفسير الكبير: "واعلم أنَّ المراد من هذه الآيات بيان تخريب العالم وفناء الدنيا ... فمن أراد تخريب دار فإنَّه يبدأ أولاً بتخريب السقف، وذلك هو قوله تعالى: (إذا السماء انفطرت)، ثم يلزم تخريب السماء انتثار الكواكب، وذلك هو قوله: (وإذا الكواكب انتثرت)، ثم إنَّه تعالى بعد تخريبه السماء والكواكب، يخرب كلَ ما على وجه الأرض، وهو قوله: (وإذا البحار فجرت)، ثم إنَّ

(١) بنت الشاطئ – التفسير البياني للقرآن الكريم ، ج٢، ص١١٢.

(٢) الانفطار :١–٤

الله تعالى يُخرب آخر الأمر الأرض التي هي البناء، وذلك في قوله: (وإذا القبور بعثرت)، فإنه إشارة واضحة إلى قلب الأرض ظهراً لبطن، وبطناً لظهر "[1].

ومن التقديم المعنوي ما يجيء للدلالة على الأسبق بالوجود على ما بعده، كتقديم السماء على الأرض، وتقديم الأرض على الجبال، في قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[3] .

ومن ذلك أيضاً تقديم الشمس على القمر، في قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾[4]، فقدم الشمس على القمر؛ لأنها قبله في الوجود [5].

---

(١) الرازي – التفسير الكبير ، ج٣١، م١٦، ص٧٨.
(٢) النازعات :٢٧-٣٢
(٣) النبأ : ٦-٧
(٤) الشمس : ١-٢
(٥) السامرائي – التعبير القرآني ، ص٥٤.

وقد يُراعي التقديمُ الترتيبَ الزمني تبعاً للأسبقية، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾[١]، فعاد أسبق من ثمود، وعاد وثمود أسبق من فرعون، وقد يؤتى بعكس ذلك؛ مراعاةً للفاصلة القرآنية بشرط ألا يؤثر على المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾[٢]، فقد قدم فرعون على ثمود، علماً بأن فرعون من المتأخرين، وثمود من المتقدمين، " فالمقصود من الآيات بيان حال المؤمنين مع الكفار في جميع الأزمنة،على هذا النهج، وهذا هو المراد من قوله تعالى: (بل الذين كفروا في تكذيب) "[٣]، فيلاحظ بأنَّ التقديم لم يؤثر في المعنى ، فذِكْرُ كليهما مثالٌ على الكفر والتكذيب ، وفيهما العبرة والعظة .

فلا جرم أنَّ للتقديم والتأخير علاقةً وطيدة في تحقيق موسيقا الجملة الداخلية والخارجية ، فالقرآن الكريم يأتي بالإعجاز على مختلف الوجوه لا وجه واحد، وعندما تُراعى الفواصل لا نرى في هذا التقديم إخلالاً بالمعنى أو ضعفاً لأجل مراعاة الفاصلة، بل تزيد المعنى قوة وأبهة، وفي الوقت ذاته تتناسب

---

(١) الفجر : ٦-١٠

(٢) البروج :١٨

(٣) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١، ص ١٢٥.

والإيقاع العام للآيات، فالقرآن الكريم يقدم الألفاظ ويؤخرها حسبما يقتضيه المقام سياقاً وإيقاعاً ؛ لتحقيق أعلى درجات التأثير في المتلقي .

ولنتأمل ما يحققه تقديم الموت على الحياة من تناسب مع الإيقاع والسياق، في قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [1] فقدم الموت على الحياة لتتناسب مع فواصل السورة ؛ ولأن الكافر حينذاك يتمنى الموت ليستريح من شدة العذاب، فهو لا يموت في النار فيستريح من عذابها، ولا يحيا فيها حياة هانئة ترضيه، وجاءت (ثمَّ) المقتضية للتراخي إيذاناً بتفاوت مراتب الشدة ؛ لأن التردد بين الحياة والموت أشدُّ وأفظعُ من الصلي نفسه [2] .

ويتعاضد مع التقديم بنية الطباق بين (يموت، يحيا) التي منحت الصورة هالةً رهيبة تبعث في النفس ألواناً من الخوف والفزع ، مصدرها بدْءُ الذهن بتخيل هذا اللون الشاق من ألوان العذاب الذي لا راحة فيه في جميع الظروف في

(١) الأعلى : ١١-١٣

(٢) ينظر : الأندلسي – البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٤٥٨. وينظر: الشنقيطي– تتمة أضواء البيان ، ص١٠١، وينظر : العمادي– تفسير أبي السعود، ج٩، ص١٤٦.

الموت والحياة ، " فالطباق أساسٌ من أسس التفكير والتعبير الإنساني، وليس زخرفاً من القول أو زينة يمكن الاستغناء عنها " [1].

وأما تقديم النهار ومراحله على الليل فيأتي باعتبار الشرف، في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾[4]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾[5]، فتقدمت الألفاظ (الضحى، والفجر، والشفق، والنهار) على الليل ؛ لأنها أشرف من الليل ، وقد يتقدم الليل على النهار باعتبار الأصل، أو (الأسبق في الخلق) في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[6]، جاء في تفسير البيضاوي: " وتقديم الليل باعتبار الأصل ، وتقديم النهار باعتبار الشرف " [7].

---

(١) بكري شيخ أمين- البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، ص٥٩ .

(٢) الضحى : ١-٢

(٣) الشمس : ٣-٤

(٤) الفجر : ١-٢

(٥) الانشقاق : ١٦ -١٧

(٦) الليل : ١ -٢

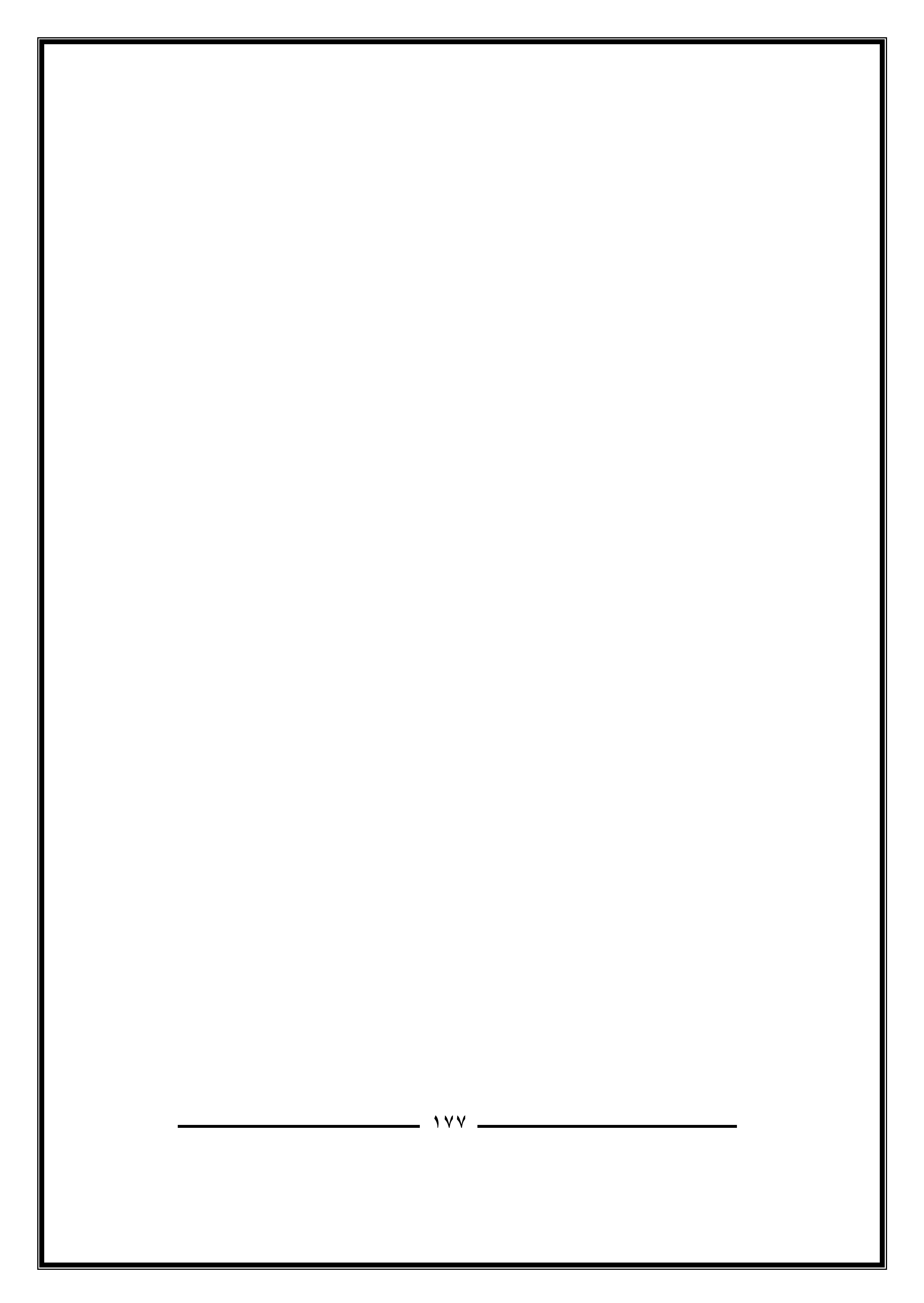
(٧) البيضاوي- تفسير البيضاوي، ج ٥، ص ٣١٩ .

ومن أمثلة تقديم السبب على المسبِّب قوله تعالى: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَنٰهَا ﴾[1] ، فقد قدم الماء على المرعى ؛ لأن الماء سبب في وجود المرعى " [2].

إنَّ آلية التقديم والتأخير – كما ذُكر سابقاً – تحمل دلالات متنوعة يكون لترتيب الكلام في الجملة دورٌ في تحديدها وبيانها، فقد يأتي هذا الأسلوب للاهتمام، أوالاختصاص، أوالتوكيد، أو للتوجيه والإرشاد، وغيرها من الدلالات التي تمنحها هذه الآلية للكلام، ولا يخفى أثر التقديم المعنوي في توجيه الدلالة على نحو يتناسب مع السياق والموقف المذكور.

(١) النازعات : ٣١.

(٢) الأندلسي– البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٤٢٣ .



الفصل الثالث

التكـــرار

يرتبط التكرار بكلٍ من الإطناب والتطويل، علماً بأن في الإطناب قوةً وبلاغةً وفي التطويل ضعفاً وعيباً، فيُعرف الإطناب بأنه " زيادة اللفظ على المعنى لفائدة " [1]، وهو بخلاف التطويل الذي تكون فيه زيادة اللفظ بلا فائدة.

ويُعد التكرار المفيد جزءاً من الإطناب ، " فأما الذي يأتي لفائدة فإنه جزءٌ من الإطناب وهو أخصُّ منه " [2]، بينما يُعد التكرار غير المفيد من التطويل، فالتكرار المفيد يضيف معنىً للكلام، ويحصلُ ذلك حين يُكرر المتكلم اللفظة الواحدة لتأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد، أو لمناسبة المقام أو لإظهار العناية بالشيء وتوجيه الأنظار إليه ، وتقرير حقيقته في النفوس أو لإبراز أهميته وخطورته .

وقد جاء التكرار في جزء عمّ على أشكال عدة، منها: تكرار الجمل ، وتكرار اللفظ ، وتكرار الصوت ، وتكرار الصيغة الصرفية ، وتكرار القصة القرآنية ، ولكل واحد منها أثره الظاهر في إكساب المعنى دلالة خاصة .

---

(١) ابن الأثير– المثل السائر ، ج٢ ، ص ١٢٠ .

(٢) المصدر نفسه – ص ١٢١

أولاً: تكرارالجُمل:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [(١)]، جاء هذا التكرار في سياق الحديث عن تكذيب الكفار للنبأ العظيم ، وهو القرآن ، وقيل: يوم البعث ، وقيل: إنَّ المقصود بالنبأ هو أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، و" كلا " رد عليهم في إنكارهم للنبأ [(٢)] .

يقول الزمخشري: "وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون أنَّ ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق ؛ لأنه واقع لا ريبَ فيه، وتكرار الردع مع الوعيد تشديد في ذلك، ومعنى(ثمَّ) الإشعارُ بأنَّ الوعيدَ الثاني أبلغُ من الأول وأشدُّ "[(٣)].

وجاء في البحر المحيط: " وهذا التكرار توكيد في الوعيد، وحذف ما يتعلق به العِلْم على سبيل التهويل، أي سيعلمون ما يحل بهم " [(٤)]، وجاء في تفسير المراغي: " وفي تكرير الزجر مع الوعيد إيماء إلى غاية التهديد " [(٥)]، فهذه التفاسير تُشير إلى ما حمله التكرار من تأكيد وتهديد ووعيد ، وباستخدام التكثيف الذي يوازي قولهم (حذف ما يتعلق به ، وإيماء) ، وكذا الأمر في سورة

(١) النبأ : ٤ – ٥
(٢) ينظر : القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ، م١٩ ، ص١٧٠.
(٣) الزمخشري – الكشاف ، ج٤ ، ص٦٨٥ .
(٤) الأندلسي – البحر المحيط ،ج٨ ، ص٤١٠ .
(٥) المراغي – تفسير المراغي ، ج٣٠، ص٧ .

التكاثر في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾[1] ففي الآية " ردعٌ وتنبيه على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أنْ تكون الدنيا جميع همه ... وفيها إنذار ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم ، والتكرير تأكيد للردع والإنذار عليهم " [2] .

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾[3]، أجمع الجمهور على أنَّ التكرار– هنا – لتعظيم ذلك اليوم[4] وتعجيب وتفخيم لشأنه؛ بحيث لا تدركه دراية دارٍ كنهه في الهول والشدة، وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه[5].

وجاء التكرار في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [6]، لتأكيد الكلام وإقراره، يقول الرازي: "وإذا كانت الجملة الثانية تكراراً للأولى ... يكون الغرض تقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب " [7] ، وقال أبو

---

(١) التكاثر ٣-٤

(٢) الزمخشري – الكشاف ،ج٤، ص٧٨٩، وينظر : الأندلسي – البحر المحيط ، ج٨، ص٥٠٧، والبيضاوي– تفسيرالبيضاوي ، ص ٣٣٤ .

(٣) الانفطار : ١٧– ١٨

(٤) الرازي – التفسير الكبير، م١٦ ، ج٣١ ، ص٨٧.

(٥) ينظر : الزمخشري– الكشاف ، ج٤،ص ٧١٧، والبيضاوي – تفسير البيضاوي، ج٥، ص ٢٩٣ .

(٦) الشرح : ٥– ٦

(١) الرازي – التفسير الكبير، م١٦ ، ج٣٢ ، ص ٧ .

حيان: " والظاهر أنَّ التكرار للتوكيد " [١] . ولعل في هذا التكرار مُواساة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وبشارة له بأن الفرج قريب لا محالة .

ثانياً: تكراراللفظ:

من المعلوم أن الكلمة إذا تكررت بنسبة عالية في سياقات معينة على نحو له دلالته، تصبح خواص أسلوبية تَظهر في النصوص بنسبٍ وكثافةٍ وتوزيعاتٍ مختلفة [٢]، وقد وقع تكرار اللفظ في جزء عمّ – كما يرى الباحث– على نوعين: تكرار لفظي أفقي: ويقصدُ به تكرار اللفظة في السورة نفسها، وتكرار لفظي رأسي: ويقصد به تكرار اللفظة في أكثر من سورة على امتداد الجزء .

ومن التكرار اللفظي الأفقي، قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾[٣]، فقد جاء هذا التكرار تفخيماً وتعظيماً من شأن الطارق " وهو ما أتاك ليلاً سواء كان كوكباً أو غيره ، فلا يكون الطارق نهاراً ، والدليلُ عليه قول المسلمين في دعائهم: نعوذ بالله من طوارق الليل، فهو طارق عظيم الشأن رفيع القدر " [٤]، وقد أقسم الله – عز وجل – به لعظم أمره وعلو مكانته ، فهو

(٢) الأندلسي – البحر المحيط ، ج٨، ص٤٨٨، وينظر : القرطبي – الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠، ص١٠٧ ، وينظر : ابن كثير– تفسير القرآن العظيم ، ج٤، ص٥٢٥.

(٣) ينظر : سعد مصلوح – الأسلوب دراسة لغوية إحصائية ، ص١٩ .

(٤) الطارق ١–٢

(١) الرازي– التفسير الكبير، م ١٦ ، ج ٣١ ، ص١٢٧.

آية من آيات الله العظيمة الكثيرة ، والإتيان باللفظ أولاً، ثم ذكره ثانياً يوحي بأهميته وضرورة الوقوف عنده ، علاوةً على تصدير التكرار بالاستفهام (وما أدراك) الذي يزيد من عنصر التشويق والتطلع إلى المستفهم عنه ، فيتعاضد التكرار مع الاستفهام لتفخيم شأن المقسم به وهو (الطارق) جاء في تفسير المراغي: " يقولون وما أدراك ما كذا أي: وأيُ شيءٍ يُعلمك حقيقته ... كأنه في فخامة أمره لا يمكن الإحاطة به ولا إدراكه " [1]. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[2] ، فقد تكرر ذكر ليلة القدر ؛ تعظيماً لشأنها " وإيماءً إلى أن شرفها مما لا يحيطُ به علم العلماء ، وإنمَّا يعلمه علاَّم الغيوب، الذي خلقَ العوالم وأنشأها من العدم " [3] ، فليلة القدر ليلة عظيمة نزل فيها القرآن ، وهي ليلة خير من ألف شهر ، وليلة تنزَّل فيها الملائكة ، يقول الرازي: " أي لم تبلغ درايتك غاية فضلها ، ومنتهى علو قدرها " [4] ، وقد قيل: " إنمَّا سميت ليلة القدر ؛ لعظمها وقدرها وشرفها ، من قولهم لفلان قَدْر: أي شرف ومنزلة " [5].

---

(٢) المراغي– تفسير المراغي ، ج ٣٠ ، ص١١٠ .

(٣) القدر : ١–٣

(٤) المراغي– تفسير المراغي ، ج ٣٠ ، ص ٢٠٨ .

(٥) الرازي– التفسير الكبير ، م١٦، ج ٣٢، ص ٣١.

(١) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ، م ٢٠، ص ١٣٠.

وفي تكرار (القارعة) في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[1]، دعوة صارمة وإلحاح شديد يستوقفان المتلقي للنظر في أمر هذه القارعة، " إنها القيامة والساعة، كذا قال عامة المفسرين ؛ وذلك لأنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها "[2]، ويختزن التكرار معاني التهويل والتخويف، فهي شديدة شدة لا يتصورها ذهن، ولا يسَعُها قلبٌ، فهي ليست كأيِّ مصيبة أو قارعة من قوارعِ الدنيا، بل فاقت أيَّ قارعةٍ في الهول والشدة .

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾ [3] والحطمة " النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يُلقى فيها"[4]، فهي نار تلتهم كل ما يُلقى لها وتطلب المزيد، نار مغلقة مؤصدة لا يخرجون منها أبداً، فتكرار ذِكْرِ الحُطمة والسؤال عنها، يشير إلى خصوصيتها وهولها، وأنها ليست كالنار الدنيوية المألوفة رغم شدتها، فلو لدغت النار أحدنا لدغةً بسيطة لآلمتنا أيَّما إيلاماً، فما بالك بتلك النار العظيمة نار الله الموقدة .

وتجدر الإشارة إلى أنَّ التكرار الذي سبق لا يحمل معاني التعظيم أوالتهويل وحده، بل تشاطره دلالة اللفظ نفسه (القدر، والقارعة، والحطمة)،

---

(٢) القارعة ١-٣

(٣) لقرطبي – الجامع لأحكام القرآن ، م ٢٠، ص ١٦٤.

(٤) الهمزة ٤-٥

(٥) الزمخشري – الكشاف ،ج٤، ص ٨٠٢.

والأسلوب الاستفهامي* المتضمن للفظ المكرر(المستفهم عنه)، في حمْلِ المعنى المطلوب تهويلاً أو تعظيماً .

وأما التكرار الرأسي، فمنه:

١. تكرار لفظة (كَـلا):

وردت لفظة (كَلا) بكثرة في جزء عمّ في ثمانيةَ عشرَ موضعاً، في حين وردت في باقي القرآن خمسَ عشرةَ مرة، ومن الثابت أنَّ ورود لفظة (كَلا) في السورة يجعلها مكية، وأكثر سور جزء عمّ مكية ؛ لذا وردت في النصف الأخير من القرآن الكريم، قال تعالى :

﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ (١) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾(٢)

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ (٣) ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾(٤)

﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ (٥) ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾(٦)

---

* : للمزيد حول هذا الأسلوب الاستفهامي ، ينظر : الكتاب نفسه ، ص ٢٠٧ وما بعدها.

(١) النبأ : ٤

(٢) النبأ : ٥

(١) عبس : ١١

(٢) عبس : ٢٣

(٣) الانفطار:٩

(٤) المطففين : ٧

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١]   ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [٢]

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [٣]   ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [٤]

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [٥]   ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [٦]

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [٧]   ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [٨]

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۩﴾ [٩]   ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [١٠]

﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [١١]   ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [١٢]

وقد استقرأ الباحث لفظة (كلا) عند عدد من المفسرين*، فوجد (كلا): لفظة يُراد منها الردع والزجر، والردُّ عمَّا يسبقها من قول أو عمل، جاء في

---

(٥) المطففين : ١٤
(٦) المطففين : ١٥
(٧) المطففين : ١٨
(٨) الفجر : ١٧
(٩) الفجر : ٢١
(١٠) التكاثر: ٥
(١١) العلق: ٦
(١٢) العلق: ١٥
(١٣) العلق: ١٩
(١٤) التكاثر: ٣
(١) الهمزة : ٤
(٢) التكاثر : ٤

التفسير الكبير: " (كلا) لفظة وُضعت لرد شيءٍ تقدم" [١] . وجاءت – على الأغلب – وسيلة فعَّالة في إيقاظ الغافلين، والرد عمَّا صدر منهم من قول، أوعمل، أو ظن، أو اعتقاد في أمر ما، وتوجيههم إلى الصواب، أو إلى الحقيقة التي سيصير إليها الأمر .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [٢]، ففيها ردع للمتسائلين هزواً عن يوم البعث، وسيعلمون أنَّ ما يضحكون منه حقٌ واقع لا ريب فيه [٣] فلفظة (كَلا) وضعت حدَّاً لسخريتهم واستهزائهم بيوم البعث، وأيقظتهم على حقيقة ستقع لا محالة وهي (يوم البعث) .

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ

---

* الزمخشري ، الرازي ، القرطبي ، أبو حيان الأندلسي ، البيضاوي ، الشنقيطي .

(٣) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج ٣١ ، ص ٦ .

(٤) النبأ : ٤

(٥) ينظر: الزمخشري – الكشاف، ج٤ ، ص ٦٨٥، والرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١، ص٦ .

وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾(١) جاءت (كَلا) الأولى ؛ لردع الإنسان عن تلك المقالة (إن الله إذا رزقنا أكرمنا، وإذا لم يرزقنا أهاننا)، ثم قال: بل هناك شر من هذا القول، وهو أنَّ الله يكرمهم بكثرة المال، فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبَّرة، وحض أهله على طعام المسكين، ويأكلونه أكل الأنعام ويحبونه فيشحون به، ثم جاءت (كَلا الثانية ردعاً لهم وإنكاراً لفعلهم هذا، أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا في الحرص على الدنيا والتزود بمالها حلالاً كان أم حراماً، والتوهم بعدم وجود حساب ولا جزاء ، ثم أتى بالوعيد وذكَرَ تحسرهم على ما فرَّطوا فيه حين لا تنفع الحسرة يومئذ (٢) . وهكذا الأمر في باقي الآيات التي اشتملت على (كَلا) حيث ترى ما بعدها رداً على ما قبلها.

ففي جزء عمّ طابع غالب، إنها طرقات متوالية على الحس، طرقات عنيفة قوية عالية تتوالى على حسهم تلك الطرقات من سور هذا الجزء كله بإيقاع واحد: اصحوا، استيقظوا ، انظروا ، تلفتوا ، ومع الطرقات والصيحات يد

---

(١) الفجر : ١٥-٢٣

(١) ينظر: الزمخشري- الكشاف، ج٤، ص٧٥٤ ، والرازي - التفسير الكبير،م١٦، ج٣١، ص ١٧٢-١٧٤ ، والأندلسي- البحر المحيط ج٨، ص ٤٧١، والبيضاوي- تفسير البيضاوي،ج٥ ، ص ٣١٠-٣١١.

قوية تهز النائمين المخمورين السادرين هزاً عنيفاً ، ويعود الصوت العالي ليصيح بهم من جديد ، وتعود الطرقات العنيفة (١).

ولعل الباحث يرى في لفظة (كَلا) (تلك اليد القوية التي تهز النائمين كلما قاربوا على النوم العميق)، أو كانت (كذلك الصوت العالي الذي يصيح بهم)، وإنَّك لتصطدم بها فهي كإشارة (قف) إلى أين تذهب في قولك أو عملك هذا ؟؟، بل الصواب كذا والحقيقة كذا، وهذا من شأنه لفت النظر والانتباه إلى الحقيقة التي غُفل عنها، والله تعالى أعلم .

وتتناسب لفظة (كَلا) وكثرتها مع طبيعة جزء عمّ، فأكثر سوره مكية، وهذا يعني أن الرسالة موجهة إلى قوم لم يألفوا الدين بعد، ذلك الدين الذي جاء بجديد يُغاير ما كانوا عليه، وإنك لترى (كَلا) من الوسائل الناجعة القادرة على إبراز عنصر التغير والتحول في التفكير والعمل . فهي تردُّ على ما قبلها، وأن الأمر ليس كما تقولون أو تفعلون، بل هو كذا وكذا، وبهذا يبرز عنصر التكثيف في لفظة (كَلا) فهي ليست حرفاً يفيد الردع والزجر فحسب، بل تختزن دلالات كثيرة على نحو ما لوحظ سابقاً (٢) .

---

(٢) سيد قطب – في ظلال القرآن ، ج٣٠ ، ص ٦– ٧.

(١) لمزيد من التفاصيل حول (كلا) ودورها في الخطاب المكي ، ينظر: أمير عبد العزيز – دراسات في علوم القرآن ، ص٥٩–٦٠.

٢. تكرار لفظة (ربّ):

تشير لفظة (ربّ) إلى وحدانية الله تعالى وربوبيته، حيث ذُكرت في جزء عمّ ستٌ وأربعون مرة " [١]، بينما كلمة (الله) واحدٌ وعشرون مرة ، و(إله) مرة واحدة، فلفظة (ربّ) تُهيمن على باقي الألفاظ، والربُّ إحدى صفات الخالق " ولا يُقال الرب مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات " [٢]، وقولنا ربّ "يتضمن معنى الملك والتدبير " [٣]، والربُ "المصلح للشيء والله جل ثناؤه الرب، لأنه مصلح أحوال خلقه" [٤]، والربوبية التربية والتنمية وهي موالاة المربي للمربى حتى يبلغ كماله[٥].

ولورود لفظة (ربّ) في كل آية دلالة خاصة، تَبين عن مفهوم الربوبية وتغرزه في النفوس، فانظر إلى قوله تعالى:

---

(٢) محمد فؤاد عبد الباقي – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص ٢٨٦-٢٨٧.
(٣) الأصفهاني– معجم مفردات ألفاظ القرآن ، ص١٨٨.
(٤) العسكري– الفروق في اللغة ، ص١٨١.
(١) ابن فارس – معجم مقاييس اللغة ، ص ٣٧٨
(٢) الشعراوي– المنتخب من تفسير القرآن الكريم ، ص١٠٦.

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ ﴾ (١)

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (٢)

فالله – عز وجل – هو المسيطر على هذا الكون والمالك له في مقابل عبودية الآخرين له عز وجل، قال تعالى:

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾ (٣)

﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾(٤)

﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ (٥)

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ (٦)

وإنْ لم يعتبروا ويتفكروا في الآيات المعروضة عليهم، يأتي (الربّ) في سياقات تؤكد قدرته على إهلاكهم وتعذيبهم، كما في قوله تعالى:

---

(٣) النبأ : ٣٧
(٤) التكوير: ٢٩
(٥) الكوثر : ٢
(٦) العلق :٣
(١) النصر :٣
(٢) العلق : ١

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾ (1)

﴿ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (2)

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ (3)

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴾(4)

في مقابل ذلك هناك (الربّ) الذي يكافئ كل مجتهد على عمله في الدنيا، قال تعالى:

﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾(5)

﴿ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ﴾(6)

﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ (7)

﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾(8)

---

(٣) الفجر: ١٤
(٤) البروج: ١٢
(٥) الفجر : ٦
(٦) الفيل : ١
(١) النبأ :٣٦
(٢) الفجر:٢٨
(٣) الضحى:٥
(٤) النازعات:٤٠–٤١

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ (١)

فالربّ هو من يدبر الكون ويتصرف في شؤونه كيفما يشاء، وهو الذي يستحق العبادة وحده لنعمه علينا وخلقه إيانا، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾(٢)، ثم بعد ذلك يحاسب الله المحسنَ على إحسانه والمسيء على إساءته .

أما لفظة (الله) فهي أشد الأسماء هيبة، لأنه الاسم الدال على الذات والصفات بأسرها صفات الجلال وصفات الإكرام، ولذا اقترنت في أغلب الآيات بصفاته وأسمائه * ، في حين وردت لفظة (إله) مرة واحدة في سورة الناس في قوله تعالى: ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ .

وتكرار لفظة (رب) يناسب معاني هذا الجزء ، التي استأثرت بإبراز مظاهر قدرة الله تعالى، وأحقيته بالعبادة وبيان أهوال يوم القيامة والحساب من جنة أو نار، فعندما يعرف العبد نعم الله عليه وأنه من قام بتدبيره وخلقه وإعطائه العقل، عرف بالدليل أنه عبد مملوك لربه، ثم ينتقل إلى صفاته وأسمائه ومعرفة جلالته واستغنائه عن الخلق فيعلم أنه الله، ثم إذا عرفه العبد كذلك عرف أنَّه في الجلالة

---

(٥) البينة: ٧

(٦) الذاريات:٥٦

* ينظر: الانشقاق:٢٣، البروج:٨، الأعلى :٧ ، التين:٨ ، الإخلاص:١-٢، التكوير:٢٩.

والكبرياء فوق وصف الواصفين، وأنه من ولهت العقول في عزته وعظمته، فحينئذٍ يعرفه إلهاً [١] .

ثالثاً: تكرارالصوت

ومثال ذلك ما نراه في سورة الناس، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [٢] ، إذ يوحي تكرار صوت السين (١٠مرات) وهو- صوت رخوي مهموس- بأجواء الهمس والوسوسة الشيطانية ، يقول سيد قطب: " فعند قراءتك هذه السورة قراءة متوالية ، تجد صوتك يحدث (وسوسة) كاملة ، تناسب جو السورة ، جو وسوسة (الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس) " [٣] .

ومن ذلك أيضاً تكرار صوت(الكاف) في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [٤]، فقد أوحى تكرار صوت (الكاف) وهو- صوت شديد

---

(١) الرازي – التفسير الكبير، م١٦، ج٣٢، ص ١٩٧ وما بعدها .
(١) الناس : ١- ٦.
(٢) سيد قطب – التصوير الفني ، ص ٩٤
(٣) الفجر : ٢١

مهموس- بشدة دك الأرض وتناسب أيضاً مع تكرار فعل الدك، " فقد كررعليها الدك دكاً بعد دك حتى صارت هباءً منثوراً " [١] .

رابعاًً: تكرارالصيغ الصرفية

لعل تكرار صيغة معينة وهيمنتها على باقي الصيغ، يشكل ظاهرة أسلوبية تتطلب النظر والاهتمام، إذْ وجد الباحث في الفعل المبني للمجهول صيغةً تكررت في مواطن كثيرة في الجزء، أو صيغة المطاوعة (انفعل)، وهي صيغة تلحق بالمبني للمجهول .

وارتبطت تلك الصيغ بموضوعات مهمة حيث برزت هذه الظاهرة في موقف البعث والقيامة، فالذي حقق السمة الأسلوبية ليس تكرار الصيغ فحسب، بل ارتباطها بالأحداث السابقة ؛ ليكون لها أثر كبير في إبرازها وبيان أهوالها .

---

(٤) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦، ج٣١، ص١٧٤.

انظر إلى قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴾ (١)

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾ (٢)

﴿ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴾ (٣)

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴾ (٤)

إنَّ بناء هذه الأفعال على صيغة المطاوعة، يصرف النظر عن الفاعل، ويدفع إلى الاهتمام بتلك الأحداث عينها، واطراد إسناد الحدث إلى غير محدثه، بالبناء للمجهول أو الإسناد المجازي، أو المطاوعة يدل على التلقائية التي يكون بها الكون كله مُهيأ يومئذ للحدث الخطير، وأن الكائنات مسخرة بقوة لذلك الحدث، وفائدة المطاوعة أنَّ أثر الفعل يظهرعلى مفعوله فكأنه استجاب له، كما

---

(١) التكوير : ٢
(٢) الانفطار :١
(٣) الانفطار : ٢
(٤) الانشقاق :١

أنَّ الحدث فيها يحدث تلقائياً، أو على وجه التسخير، وكأنه ليس في حاجة إلى فاعل [1].

فبناء هذه الأفعال يلفت الانتباه إلى الموقف بحدِّ ذاته، ليوقعَ أعلى درجات التأثير في نفس المتلقي، ويبرز قوة حدوث الفعل وسرعته، ويسهم الإيقاع في إحداث السرعة في الموقف وتأجيجه، وهذا ما يمكن أن يُقال أيضاً في صيغة المبني للمجهول، في الآيات الآتية:

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ [2] ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ [3]

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [4] ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [5]

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ [6] ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ [7]

---

(١) بنت الشاطئ- التفسير البياني في القرآن، ج١، ص ٨٥ / وينظر أيضاً للباحثة نفسها : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق : ص ٢٤٣.
(٢) النبأ : ١٨
(٣) النبأ :١٩
(٤) التكوير: ٥
(٥) النبأ :٢٠
(٦) التكوير :١٠
(٧) النازعات :٣٦

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾ (1) ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (2)

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (3) ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ (4)

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (5) ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ (6)

﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ (7) ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾(8)

فهذه الآيات ترتبط بمواقف الانقلاب الكوني والحساب، وتكرارها على هذه الشاكلة يصرف المتلقي عن الفاعل ويدفعه إلى الاهتمام بالأحداث ذاتها ؛ لتبقى الأذهان حائمة حول هذه المشاهد لا تغادرها إلا بعد استشعار هولها ، يقول ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾(9) ، " وبنى

(1) التكوير : 8
(2) التكوير : 1
(3) التكوير : 3
(4) التكوير : 11
(5) التكوير : 6
(6) التكوير : 12
(7) التكوير : 13
(8) المطففين : 25
(9) النبأ: 18

يُنفخ إلى النائب لعدم تعلق الغرض بمعرفة النافخ، وإنَّما الغرض معرفة هذا الحادث العظيم، وصورة حصوله " [١] .

وقد يعمدُ القرآن إلى بناء الفعل المجهول للتذكير والحث على التفكير، كما هي الحال في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾، فلو صرح بالفاعل لفات الغرض الذي هدف إليه القرآن الكريم بذكر دلائل خلق الله، وهو أنْ يتوصلوا من خلال هذا التفكر إلى حقيقة واحدة أكيدة ،وهي أنَّ من خلقَ كل هذا هو الله تعالت قدرته [٢] . فالفعل المبني للمجهول يختزن في ذاته دلالات كثيرة تُوحي برهبة الموقف المُصوَّر، وهنا يبرز دور التكثيف .

خامساً: تكرارالقصص القرآني

يتمثل تكرار القصص في القرآن في إعادة بعض حلقاتها، بحيث يكون الجزء المُكَرَّر مُناسباً للسياق الذي ورد فيه، ومنسجماً مع الموضوع العام بما يخدم غرض الوعظ، فالقصصُ " تُعرض بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغرض ، ومن الحلقة التي تتفق معه " [٣] ، وتظهر بلاغة القرآن في إعادة القصة الواحدة

(١) ابن عاشور – التحرير والتنوير ، ج٣٠،ص٣١.
(٢) ينظر : محمود نحلة – دراسات قرآنية في جزء عم ، ص ١٩٨.
(٣) سيد قطب–التصوير الفني في القرآن، ص١٦٢ .

بعبارات أخرى وبأسلوب مغاير، " فإعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنىً واحداً من الأمر الصعب، الذي تظهر به الفصاحة وتبين به البلاغة " (١)، ولعل هذا الأسلوب عند القدماء يندرج تحت مصطلح (الاقتدار) * وهو التعبيرعن المعنى بعدة صور اقتداراً من المتكلم على النظم، وعلى صياغة قوالب المعاني والأغراض، وهذا ما يظهر في القصص في جزء عمّ، التي وقعت على قسمين:

أولاً – قصص متكررة في الجزء، وهي:

١) قصة موسى وفرعون، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (٢).

---

(١) الباقلاني- إعجاز القرآن ، ص٦١ .

* ينظر: تمهيد الكتاب – ص١٥ ، وينظر : أحمد مطلوب – معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ج١، ص٢٧٣.

(٢) النازعات : ١٥-٢٦

٢) قصة فرعون وثمود، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ (١)

٣) قصة عاد،وثمود، وفرعون قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (٢) .

٤) قصة ثمود مع الناقة قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ (٣).

---

(١) البروج :١٧-٢٠

(٢) الفجر : ٦-١٤

(٣) الشمس : ١١-١٥

ثانياً – قصص غير متكررة في جزء عمّ:

١) قصة أصحاب الفيل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١
أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن
سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[1] .

٢) قصة أصحاب الأخدود، قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥
إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[2].

فيلاحظ بأنَّ بعض القصص قد تكررت كقصة فرعون و ثمود مع اختلاف طرق العرض لتلك القصص، ويأتي هذا التكرار لأغراض عدة:

(١) الفيل : ١–٥

(٢) البروج : ٤–١٠

١- الغرض الأول: غرض ديني يتمثل في أخذ العظة والعبرة من القصص، ودليل ذلك ما خُتمت به القصة الأولى (قصة سيدنا موسى مع فرعون)، بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [١]، وانظر إلى المؤكدات التي جاءت في الآية الكريمة، ومشددة على أخذ العبرة من الأقوام السابقة التي كذَّبت بآيات الله ورسله، فحق عليها العذاب والوبال، ففي القصة الأولى (موسى و فرعون) بيان لخاتمة هذا الطاغية ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴾" فإغراق في الدنيا وإحراق في الآخرة " [٢] .

وفي القصة الثانية ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ " قدرة من الله على إنزال العذاب بالكافرين ، كما أنزله بفرعون ، فالله عالم بهم وهو يجازيهم " [٣] .

وفي القصة الثالثة (عاد ، فرعون ، ثمود) كانت العاقبة في قوله تعالى: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ خسراناً وهلاكاً إذْ يُصَبُّ عليهم العذاب صبّاً في إشارة لكثرته مع شدته وتمركزه .

---

(٣) النازعات :٢٦

(١) الزمخشري- الكشاف،ج٤ ، ص ٦٩٦.

(٢) ينظر : القرطبي - الجامع لأحكام القرآن، ص ٢٩٨-١٩٢ .

وفي القصة الرابعة (ثمود)خُتمت القصة بقوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ فأطبق عليهم العذاب بسبب ذنبهم، وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذين أذنبوا فعلى كل مذنب أن يعتبر و يحذر [1].

فما ذُكر من القصص إشارة صريحة إلى وعيد من أنكر وكذب آيات ربه، من بعد أنْ جاءته هادية مبشرة، فاختيار سيناريو هذه القصص يتناسب مع ما ذُكر في الجزء من مظاهر كونية و آيات خلقية، ومن ينكر هذه المظاهر والآيات سَيحلُ به ما حلَّ بسابقيه من منكري آياته عز وجل .

٢- الغرض الثاني: الترويح عن النبي – صلى الله عليه و سلم – والتثبيت له ولأتباعه عليه السلام، يقول سيد قطب:" وكان من أغراض القصة بيان أن الله ينصرُ أنبياءه في النهاية و يهلك المكذبين؛ و ذلك تثبيتاً لمحمد، وتأثيراً في نفوس من يدعوهم إلى الإيمان " [2]، فأكثر القصص بدأت بخطاب مباشر لمحمد خير البرية – عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾[3]

---

(١) ينظر : الزمخشري – الكشاف ، ج٤، ص ٧٦٤.
(٢) سيد قطب – التصوير الفني في القرآن، ص ١٥١ .
(٣) النازعات :١٥

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾[1]

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾[2]

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾[3]

جاء في بعض التفاسير [4] أنَّ المخاطَب في هذه الآيات هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

٣- الغرض الثالث: إثبات وحدانية الله – عز وجل- وقدرته، فيلاحظ في جزء عمّ الدقة في عرض المعطيات (خلق الله ونعمه) و(عاقبة المكذبين) (ويوم القيامة والحساب) بحيث يُسخر كل واحدة في خدمة الآخر وتقويته، فالله- عز وجل- يعرض الآيات الدالة على قدرته في أنحاء الجزء كافة (خلق السماء ،والإبل، والليل، والنهار، والشمس...الخ) ثم يُورد القصص الدالة على عاقبة من أنكر تلك الآيات، وجحد بها ميناً وبهتاناً، ثم يعود إلى ذكر أهوال القيامة ثم الحديث عن النعيم والجنة، والجحيم والنار، هكذا دواليك في جميع الجزء، وهذا كله يقود إلى إثبات أحقيته -عز وجل - بالطاعة والعبادة.

---

(٤) الفجر :٦

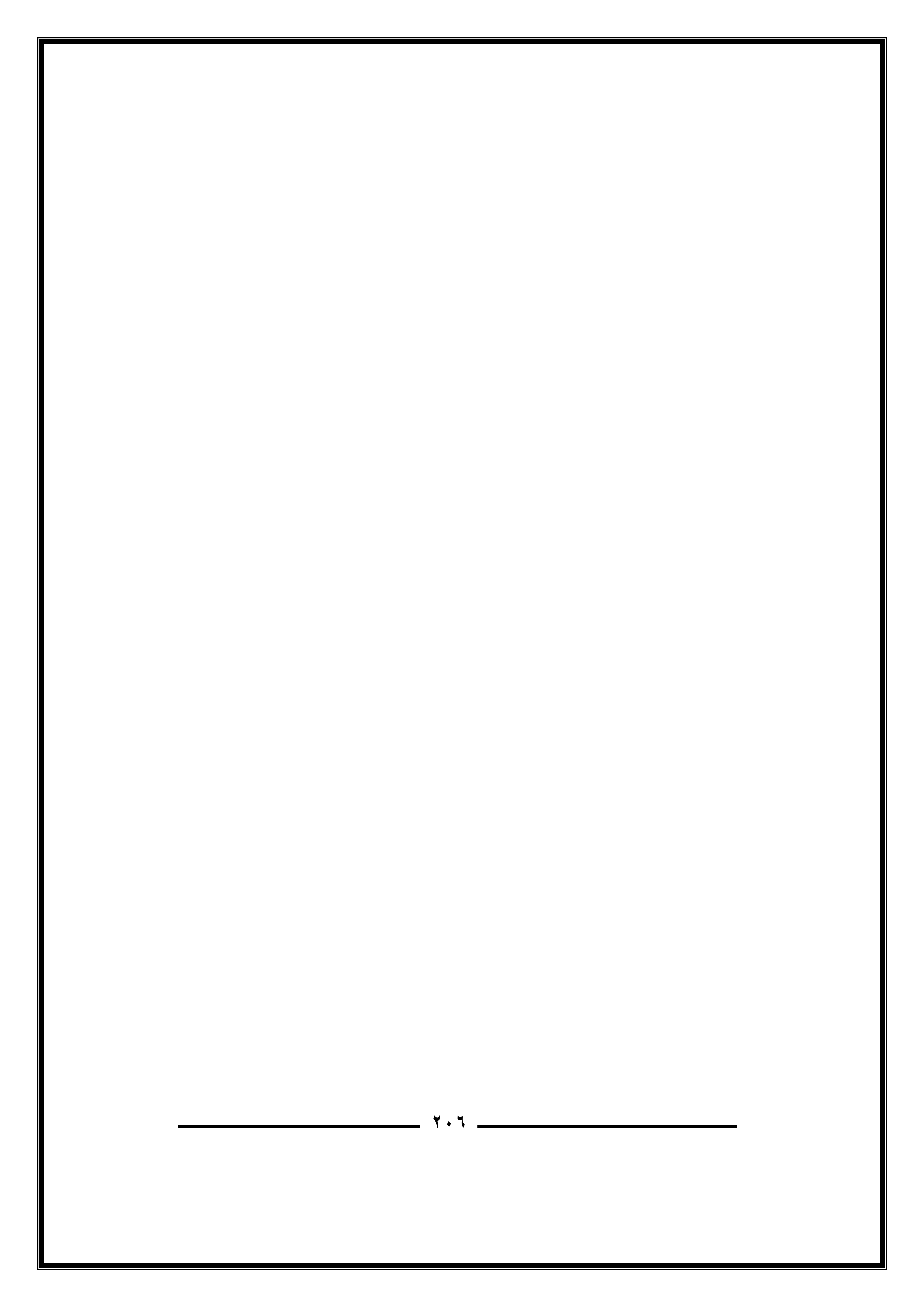
(١) البروج :١٧

(٢) الفيل :١

(٣) ينظر: القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ،ج ١٩، ص ٢٩٧ ، والصابوني- صفوة التفاسير، القسم العشرون ، ص١٣ و ص٤٢.

ويبرز التكثيف في القصص القرآني في (جزء عمّ) بما ينماز به من القصر نسبياً، وبما يتناسب وقصر آياته وفواصله، فهي تعرض إشارات سريعة تؤثر في النفس، وتبقيها على حذر، مع أخذ العبرة والحيطة، فنراها تَعمد إلى ذِكْر المُخَاطب أو ذِكْرِ عمله الذي استحق به العذاب، لمعرفة هذا العمل وتجنُّبه، فهذا القصر لم يُفقد من دلالاتها شيئاً، بل اختزنها في القصة نفسها *.

*** للمزيد من التفاصيل حول القصة في القرآن ، ينظر : محمد أحمد خلف الله- الفن القصصي في القرآن الكريم.**



الفصل الرابع

الاستفهـــام

الاستفهام: " طلب العلم بالشيء ما لم يكن معلوماً من قبل، وهو الاستخبار الذي قالوا عنه إنَّه طلب خبر ما ليس عندك، وهو بمعنى الاستفهام، أي: طلب الفهم ومنهم من فرق بينهما، وقال: إنَّ الاستخبار ما سبق أولاً ولم يفهم حق الفهم، فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهاماً " (١) .

وقال القزويني في تعريفه: " الاستفهام لطلب حصول في الذهن والمطلوب حصوله في الذهن، إما أن يكون حُكماً بشيء على شيء أو لا يكون، والأول هو التصديق ويمتنع انفكاكه عن تصور الطرفين، والثاني هو التصور ولا يمتنع انفكاكه عن التصديق" (٢)، وأما العلوي فعرفه بقوله: "الاستفهام طلب المراد من الغير على جهة الاستعلام " (٣) .

وللجملة الاستفهامية في اللغة العربية أدواتٌ خاصة، قُسمت إلى نوعين هما: الحروف والأسماء، فأما الأول فيشمل حرفي (هل والهمزة)، وتُستعمل الهمزة لطلب التصديق، وهو إدراك النسبة أي تعيّنها ويكون الجواب عنها بـ (نعم) أو (لا)، وللتصور وهو إدراك الشيء المفرد أي تعيّنه والجواب عنها يكون

---

(١) الزركشي– البرهان في علوم القرآن ، ج٢ ، ص٣٣٩ .

(٢) القزويني– الإيضاح في علوم البلاغة، ج١، ص١٣١.

(٣) العلوي– الطراز ، ص٥٣٢ .

بتحديد المفرد، أما (هل) فلا يطلب بها غير التصديق، والجواب عنها يكون بـ " نعم " أو " لا "، والثاني الأسماء، ولا يطلب بها إلا التصور، وهي:

١. ما: يطلب بها شرح الشيء .

٢. من: للسؤال عن الجنس .

٣. أي: للسؤال عما يميز أحد المتشاركين في أمرٍ يعمهما .

٤. كم: للسؤال عن العدد .

٥. كيف: للسؤال عن الحال .

٦. أين: للسؤال عن المكان .

٧. أنّى: تارة تدل على الحال ، ومرة للمكان أو للزمان .

٨. متى: للسؤال عن الزمان .

٩. أيّان: للسؤال عن الزمان أيضاً .

وقد قسَّم العلوي الاستفهام باعتبار ما يؤديه من معنى إلى ثلاثة أقسام[١]:

١) موضوع للتصور (من / ما / كم / كيف / أين / أنى / متى / أيان) بمعنى: أنها دالَّة على التصور، وأنها موضوعة للسؤال عن الماهيّة الحاصلة في الذهن من غير أن يضاف إليها حكم من الأحكام مما هو موضوع للتصور في السؤال .

---

(١) ينظر : العلوي – الطراز ، ص ٥٣٤ .

٢) موضوع للتصور والتصديق جميعاً، وقصد بها الهمزة فإفادتها للتصور في مثل قولك: أإدامك زيت أم عسل، وأما كونها للتصديق، نحو قولك: أقام زيد، ففي الأول يكون الجواب بذكر حقيقة الشيء وتصور ماهيته، وفي الثاني يكون الجواب بذكر حصول الصفة أو نفيها .

٣) موضوع للتصديق فقط: وقصد بها حرف "هل" فنقول "هل قام زيد".

وتظهر علاقة الاستفهام بالتكثيف من خلال تجاوز الاستفهام للدلالة الإنتاجية المألوفة (طلب الاستعلام) إلى دلالات إنتاجية أخرى، ويظهر أيضاً من خلال التركيز على أنماط استفهامية تختزن دلالات أخرى تُعمِّق من المعاني المطروقة، وإليك تفصيل ذلك:

أولاً : خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى دلالات إنتاجية أخرى

من ذلك خروج الاستفهام إلى دلالة (التقرير) ويقصد به: " حَمْلُكَ المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده" [1]، فأنت لا تستفهم منه أفعل أم لم يفعل، بل تريد أنْ تُعلمه بأنَّه الفاعل، فإذا قلت أأنت فعلت ذلك كان غرضك أنْ تقرر بأنه الفاعل على سبيل التحقق والتثبت[2]. فالمخاطب من يجيب في نفسه ويقرُّ بالحقيقة في أعماقه؛ لتقامَ عليه الحجة، ومثال ذلك: قوله تعالى:

(١) الزركشي- البرهان في علوم القرآن ، ج ٢ ، ص٣٤١ .
(٢) الجرجاني – دلائل الاعجاز ، ص ١١٣ .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾[1] ، فالاستفهام للتقرير: " أي كيف تنكرون أو تشكون في البعث، وقد عاينتم ما يدل عليه من قدرة تامة، وعلم محيط، وحكمة باهرة ... انظروا إلى الأرض التي جعلت مُمهدة موطأة للناس والدواب، تقيمون عليها وتفترشونها، وتنتفعون بخيراتها الظاهرة والباطنة " [2]، فيظهر التكثيف – هنا– في اختزان أسلوب الاستفهام دلائلَ الله – عزوجل – عن طريق عرض البراهين، فالله خلق الأرض ومهدها لكم، وأنتم عاينتم قدرته في المشاهد المرئية أمامكم، إذنْ عليكم أن تؤمنوا بقدرته في الأمر الغيبي الذي حدثكم عنه (النبأ) ... كل هذه الأدلة وغيرها اختزنها أسلوب الاستفهام *.

و قد يخرج الاستفهام إلى دلالة الإنكار وهو " أن تنكر على المخاطَب وتستهجن منه ما حدث ؛ لينتبه السامع و يرجِع إلى نفسه، فيخجلَ ويرتدع ويعيا بالجواب"[3] ومن ذلك قوله تعالى:﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾[4] ففي الآية إنكارعظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف ولا يخمنون تخميناً (أنهم

---

(١) النبأ : ٦

(٢) المراغي – تفسير المراغي ،ج٣٠ ، ص٧.

* هنالك العديد من الاستفهامات التي حملت دلالة التقرير : ينظر– البلد:٨، الشرح :١، الفيل:٨ ، العلق:١٤، التين:٨ .

(٣) الجرجاني – دلائل الإعجاز ، ص ١١٩ ، وينظر : الأزهر الزنّاد– دروس البلاغة العربية ،ص١١٥.

(٤) المطففين : ٤

مبعوثون) فمسؤولون عما يفعلون[1]، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[2]، وقد يأتي مع الإنكار غرضٌ آخرُ كالنفي والتهكم والاستبطاء ... ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ [3] إنكار + تعجب .

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [4] إنكار + تعجب .

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [5] إنكار + تعجب.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [6] إنكار + تعجب .

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [7] إنكار + تعجب .

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [8] إنكار + تعجب .

---

(١) القرطبي– الجامع لأحكام القرآن ، م ١٩ ، ص٢٥٤

(٢) الانفطار :٦

(٣) النازعات: ١٠

(٤) النازعات : ١١

(٥) البلد : ٥

(٦) البلد: ٧

(٧) العلق : ٩–١٠

(٨) العاديات : ٩

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ [1] إنكار + تقرير.

﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] إنكار + تقريع وتوبيخ .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [3] إنكار+ حث .

ومن الاستفهام ما يخرج إلى معنى التشويق، ويهدف إلى تحفيز القارئ إلى معرفة الأمر، والبحث عنه، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

- ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ [4]
- ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴾ [5]
- ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾ [6]

ومن الاستفهام ما يخرج عن معناه الأصلي لتحقيق التهويل، ويكون بهدف التخويف [7]، ومن ذلك قوله تعالى:

---

(١) النازعات : ٢٧
(٢) الانشقاق: ٢٠
(٣) الغاشية : ١٧
(٤) النازعات : ١٥
(٥) البروج : ١٧
(٦) الغاشية : ١
(٧) أحمد مطلوب – معجم المصطلحات البلاغية ، ج١، ص ١٩٢ .

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ [1]

﴿ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ [2]

﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ [3]

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴾ [4]

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴾ [5]

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴾ [6]

﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ [7]

وقد يخرج الاستفهام إلى معنى التعظيم والتفخيم ليعظِّم ويفخم من شأن أمر ما، وأمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [8] ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ [9] .

---

(١) الانفطار: ١٧

(٢) الانفطار: ١٨

(٣) القارعة : ١-٢

(٤) القارعة : ١٠

(٥) الهمزة : ٥

(٦) المطففين: ٨

(٧) الحاقة : ١-٢

(٨) النبأ : ١

(٩) المطففين: ١٩

ومن الاستفهام ما يخرج إلى معنى النفي، ومثال ذلك قوله تعالى ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَآ﴾ [١] كناية عن نفي أن يكون للنبي عِلْمٌ بوقت قيام الساعة، ولا يُقال إنَّ الاستفهام هنا للإنكار ؛ لأنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لم يدَّعِ شيئاً من ذلك، فإنْ كان إنكارٌ فهو بالنسبة لغيره [٢] .

ثانياً: الأنماط الاستفهامية ودلالالتها

١– النمط الأول: (الهمزة + أداة نفي (لم) + فعل مضارع)، ومثال ذلك:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [٣]

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ [٤]

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [٥]

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [٦]

---

(١) النازعات :٤٣

(٢) ينظر : القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ، م١٦، ص٢٠٩.

(٣) الفجر :٦

(٤) البلد :٨

(٥) الضحى : ٦

(٦) الشرح : ١

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ (١)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ (٢)

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ (٣)

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (٤)

ومثلُ ذلك شائع في كلام العرب فيجعلون الاستفهام على نفي فعل، والمُراد حصوله بحثِّ المخاطب على الاهتمام بتحصيله، أي كيف لم ترَ ذلك " (٥).

٢- النمط (ما + أدراك + ما + المستفهم عنه) كما في قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ (٦)

﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ (٧)

---

(١) العلق : ١٤
(٢) الفيل : ١
(٣) الفيل : ٢
(٤) التين : ٨
(٥) ابن عاشور- التحرير والتنوير ، ج١٦ ، ص ١٦٥ .
(٦) الانفطار :١٧
(٧) الانفطار :١٨

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴾ [1]

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ [2]

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ [3]

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴾ [4]

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [5]

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ [6]

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴾ [7]

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴾ [8]

وهذا النمط الاستفهامي كيفما وقع يتكون من استفهامين لا استفهام واحد، الأول: (وما أدراك) للنفي أو الإنكار، أو لنفي العلم بماهية المستفهم عنه

---

(١) المطففين : ٨
(٢) المطففين : ١٩
(٣) الطارق :٢
(٤) البلد : ١٢
(٥) القدر : ٢
(٦) القارعة : ٣
(٧) القارعة : ١٠
(٨) الهمزة : ٥

حق العلم والمعرفة، والثاني: (ما + المستفهم عنه) ؛ لتهويله والدعوة إلى التعجب من شأنه، والأمور المستفهم عنها في جزء عمّ لها ثقل خاص، فالاستفهامات تضمنت الاستفهام عن مظاهر خلق الله – عز وجل – وقدرته (الطارق)، ثم يوم القيامة(يوم الدين، القارعة) ثم الحساب وكتبه (سجين، عليون)، ثم العقاب وأشكاله (الحطمة)، ثم الأعمال التي سجلت في صحائف الفائزين ففازت(العقبة) .

ثمَّ انظر إلى أثر تكرار هذا النمط في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[1]، فتوالي هذه الاستفهامات يُوقع الرهبة في النفس من هذا اليوم العصيب، كما تُصعِّد هذه الاستفهامات من الشحنات النفسية التي تهيئ القارئ لاستقبال صورة مذهلة رهيبة، تتمثل في الإجابة عن هذه الاستفهامات، وهي في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾[2].

(١) القارعة : ١– ٣

(٢) القارعة : ٤– ٥

٣- نمط (هل + أتاك + حديث + مضاف اليه)، كما في قوله تعالى:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ (١)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ (٢)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ (٣)

وفي هذا النمط تشويق للقارئ في البحث عن كنه المستفهم عنه، وتمهيدٌ مثير للذهن، ومحرك للمشاعر وطارد لشواغل السامع ؛ ليقبِل على ما قال، وقد صفا الذهن ووعى القلب، فيتمكن المعنى من النفس كلَ تمكن، يقول الرازي: " إنما قال (هل أتاك)؛ لأنَّه تعالى عرّف رسولَه من حالها وحال الناسِ فيها، ما لم يكن هو ولا قومُه عارفاً بها على التفصيل " (٤)، وتتمثل فائدة هذا النمط في تأَهُب المتلقي لاستقبال الخبر، جاء في البحر المحيط: " وهذا استفهام توقيف فائدته تحريك نفس السامع إلى تلقي الخبر " (٥).

(١) البروج : ١٧

(٢) الغاشية :١

(٣) النازعات : ١٥

(٤) الرازي – التفسير الكبير ، م١٦ ، ج٣١، ص ١٥١.

(٥) الأندلسي – البحر المحيط ، ج٨ ، ص ٤٦١.

وقد يحتمل معنى (هل أتاك) أن يكون معناه أليس (قد أتاك) بمعنى أنه أتاك ذلك قبل هذا الكلام (١) .

ثالثاً : سمات أسلوبية أخرى في أسلوب الاستفهام

ثمَّة سمات أسلوبية في أسلوب الاستفهام، ومن هذه السمات استخدام " ما " فقد كانت من أكثر الأدوات دوراناً في جزء عمّ، وبهذا يخالف الباحث ما ورد في بعض الدراسات من أنَّ أكثر الأدوات دوراناً هي الهمزة، ومثال ذلك ما ذكره الدكتور محمود نحلة في كتابه (دراسات قرآنية في جزء عم) حين قال: " والناظر في استعمال القرآن الكريم للهمزة في جزء عمّ يجدها أكثر الأدوات استعمالاً، إذْ وردت في عشرين موضعاً من جزء عمّ، وأما غيرها فلم يرد إلا في أقل من نصف هذا العدد " (٢) .

فالواقع الإحصائي يخالف ذلك، فالأداة الغالبة في الجزء هي (ما) إذْ وردت في ثمانية وعشرين موضعاً، وليست الهمزةُ مَنْ تسيطرُ على الأدوات في الجزء . ولعلَ غلبةَ (ما) على الأدوات الأخرى، يتأتى من قدرتها على إعطاء التصور المطلوب لإدراك المستفهم عنه.

---

(١) ينظر : الرازي – التفسير الكبير، م١٦، ج٣٢، والألوسي –روح المعاني ، م١٦، ج٣٠، ص٢٠٠.

(٢) محمود أحمد نحلة – دراسات قرآنية في جزء عم ، ص٢٨٢.

يقول العلوي في (الطراز) عن (ما): " إنها دالّة على التصور، وهو أنها موضوعة للسؤال عن الماهية الحاصلة في الذهن من غير أن يضاف إليها حكم من الأحكام... ولهذا فإنه يحق على المجيب أن يجيبَ بذكر ماهية هذه الأمور؛ ليكون جوابه مطابقاً لسؤال السائل[١]، وهذا ما نلمحه في أغلب الاستفهامات المصدرة بـ (ما) وذلك في قوله تعالى:

السؤال	الجواب
﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾[٢]	﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾[٣]
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾[٤]	﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾[٥]
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾[٦]	﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾[٧]
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾[٨]	﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾[٩]

---

(١) العلوي – الطراز ، ص٥٣٢– ص٥٣٣ .

(٢) النبأ : ١

(٣) النبأ : ٢

(٤) الانفطار : ١٧

(٥) الانفطار : ١٩

(٦) المطففين : ٨

(٧) المطففين : ٩

(٨) المطففين : ١٩

(٩) المطففين : ٢٠

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ (١) ﴿ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ (٢)

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴾ (٣) ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي

مَسۡغَبَةٖ ﴾(٤)

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ (٥) ﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴾ (٦)

﴿ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ (٧) ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴾ (٨)

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾(٩) ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ

ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾ (١٠)

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴾ (١١) ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴾(١٢)

---

(١) الطارق : ٢

(٢) الطارق : ٣

(٣) البلد : ١٢

(٤) البلد : ١٣- ١٦

(٥) القدر : ٢

(٦) القدر : ٣- ٤

(٧) الزلزلة : ٣

(٨) الزلزلة : ٤

(٩) القارعة : ٣

(١٠) القارعة : ٤

(١١) الهمزة : ٥

(١٢) الهمزة : ٦

فالقرآن الكريم يطرح السؤال ثم يجيب عنه بماهيته، حتى يتصوره الإنسان ويحقق الأثر المطلوب في النفس، وللاستفهام بـ(ما) أيضاً " دلالة ازدواجية، حيث تكون مهمتها طلب شرح الدَّالِّ الذي تتسلط عليه، أي شرح مدلوله، أو كشف حقيقة هذا الدَّال الذي تسلطت عليه " (١) فأكثر الدوالِّ الواردة في الآيات السابقة أمورٌ غيبية جديدة على الإنسان ، يحاول القرآن وصفها من خلال أسلوب السؤال والجواب حتى تكون أكثر تصوراً وفهماً .

ومن السمات الأسلوبية – أيضاً – كثرة أساليب الاستفهام عامَّة، إذْ إنَّ طريقة العرض باستخدام الأسلوب الاستفهامي كان لها الأثر الأقوى في النفس، مما لو عُرضت هذه الحقائق بأسلوب خبري فحسب، بل إنَّ استخدام الاستفهام في الجزءِ بهذه الكثرة يُنوِّع في مستوى الإيقاعات النفسية في كل موضع، ويبقي الذهن في حركة دؤوبة تستجلي الحقيقة وتبحث عنها إلى أنْ تقرَّ في النفس .

وهناك سبب آخر يجعل من الاستفهام وسيلة مميزة في الاستخدام اللغوي، وهو دفع الاستفهام الرتابةَ عن النص؛ "لأنه يُعد شكلاً من أشكال التنوع في الأساليب، والانتقال من الخبر إلى الإنشاء، كما أنَّه يدفع المخاطبين إلى

---

(١) محمد عبد المطلب – البلاغة العربية قراءة أخرى ، ص ٢٩٠.

التفكير والتأمل" [1]، ففي جزء عمّ مواطنُ كثيرة تستدعي التفكر والتأمل، حيث غدا الاستفهام عنصراً فاعلاً في تحقيق التمعن والتبُّصر، وأمثلة ذلك قوله تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [2]

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [3]

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [4]

ويلاحظ في الآيات وجود أفعال تقود إلى العلم بالشيء، من خلال الفعلين (تنظر، ترى)، فاستخدم الفعل (تنظر) لمعرفة خلق الإبل وما فيها من دلائل قدرةٍ وعظيم خَلْق، بينما في الآيتين الثانية والثالثة استخدم الفعل ترى، والتساؤل – هنا –: كيف لنا أن نرى هذه الحوادث وقد حصلت في الماضي؟ إنَّ العلم الذي يقوله الله – عز وجل – ويخبرك به غيباً، يجب أن تستقبله من الله استقبال الناظر، وكأنك ترى هذه الصورة على وجه الحقيقة ماثلة أمام عينيك [5]، والأمر كذلك مع كل الأمور الغيبية، فنور العقل لا يطمس نور الوحي بشرط ألا يتجاوز هذا العقل حدوده . وبهذا يتضح أنَّ الاستفهام على كثرته وتنوع أنماطه يحمل دلالات مُكثفة تختزن دلالات فكرية عميقة تتجاوز حدود الدلالة السطحية للاستفهام وهي الاستعلام .

---

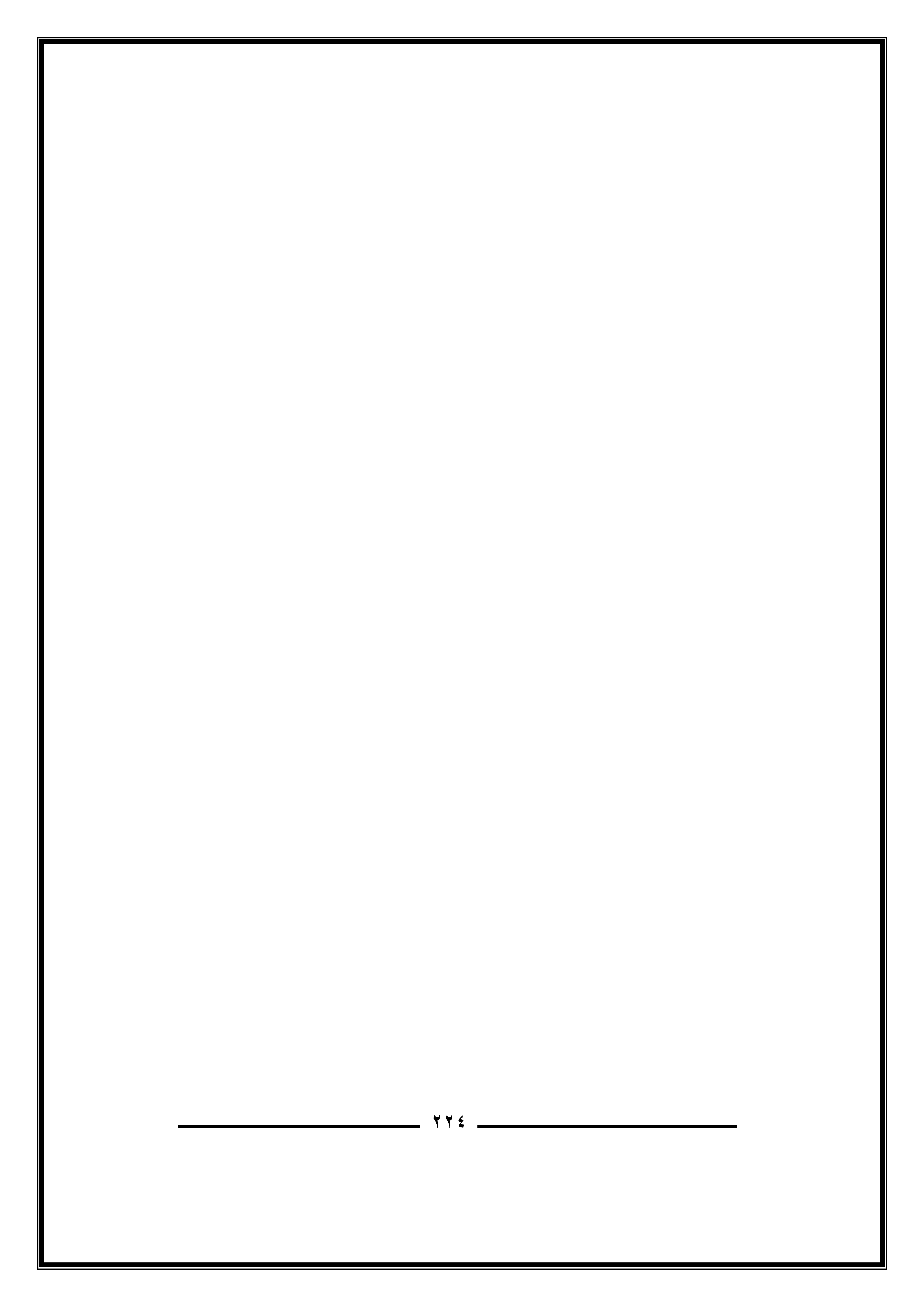
(٢) معين رفيق صالح – دراسة أسلوبية في سورة مريم ، رسالة ماجستير ، ص ١٦٠.

(١) الغاشية : ١٧

(٢) الفجر : ٦

(٣) الفيل : ١

(٤) ينظر: الشعراوي– المنتخب من تفسير القرآن الكريم ، ص١٠٣.



خاتمـــة

سَعَت هذه الدراسة إلى الكشف عن " التكثيف البلاغي" في جزءِ عمَّ، من خلال تناول التكثيف في الصورة المتمثل في احتواء الصورة على مولد يختزن دلالات معينة، مفصلاً أنواعَها: التشبيهية، والمجازية، والكنائية، والوصفية، ثم تطرقت الدراسة إلى الكشف عن التكثيف في الأسلوب من خلال عرض بعض الظواهر الأسلوبية في جزءِ عمّ، فاستخدام أسلوب أو نمط ما ينقل دلالات موجهة نحو المتلقي بحيث لا تحملها التراكيب التي قد تخلو منه، ويكون للمتلقي دورٌ مهم في استنباط هذه الدلالات والكشف عنها .

ومن أبرز نتائج هذه الدراسة، ما يلي :

– أولاً: إنَّ جزءِ عمَّ الذي يتحدث عن قدرة الله وعجيب خلقه، وتصوير مشاهد القيامة، وإنذار المشركين، وتأكيد حقيقة الثواب والعقاب، والجنة والنار، يحتاج إلى أسلوب ينماز بالقصر والإيجاز؛ ليتناسب مع طبيعة المخاطبين الذين لا يمكن أن تستوقفهم مدة كبيرة، فهم مُعرضون يَنفرون من دين جديد أراد هدايتهم وإصلاحهم، لذا جاء جزءِ عمَّ بأسلوب سريع يختزن دلالات عظيمة بحجم عِظَم موضوعاته، ورأينا قدرته على ذلك من خلال آلية التكثيف البلاغي، القائمة على احتواء كل هذه الموضوعات وغيرها بتعابير

وأساليب ذات إيقاع سريع متفاوت، دون أن يفقد هذا الإيجاز من التعابير شيئاً من المعاني المقصودة، بل زادها تركيزاً وتأثيراً .

- ثانياً: بروز عنصر التكثيف في الصورة القرآنية من خلال عنصرالاختيار فيها، وهذه ظاهرة بارزة تُميّز الصورة القرآنية، فهي تستثمر أقل ما يمكن من اللفظ لتوليد أكثر ما يمكن من المعاني، وهي لا تتجاوز سبيل القصد، ولا تميل إلى الإسراف، فثمة اختيار محكم للألفاظ وإيجاز قادرعلى نقل أحداث الموقف بكل تفصيلاته لتحقيق الأثر النفسي المرجوّ من تلك المواقف، كما أن عناصر الصورة منتزعة من البيئة المرئية للإنسان، فهي عناصر مألوفة علمها الإنسان وأدرك حقيقتها، لتكون أقرب إلى الفهم والاستيعاب .

- ثالثاً: قدرة بعض الصور والأساليب على إحداث المفاجأة من خلال عنصر كسر التوقع، الذي من شأنه لفت انتباه المتلقي إلى المعاني المعروضة أمامه، وترسيخها في ذهنه .

- رابعاً: يُلاحظ بأن القرآن الكريم يلجأ في أدلته ومناظراته إلى أدلة وبراهين جليّة، يفهمها العامّة والخاصة، فلمْ يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج، وذلك لأن القرآن جاء بلسان عربي يخاطبهم بما يعرفون ؛ ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهده وتحس أقوى أثراً وحجةً .

- خامساً: تنوع الخيارات والأساليب في التعبير القرآني فهو لا يعمد إلى أسلوب أو طريقة واحدة ، بل يقوم على التنوع والاختلاف على صعيد الأسلوب نفسه، ففي محور الصورة مثلاً نرى الصورة التشبيهية ، ثم الصورة المجازية بأنواعها (الاستعارة ، والمجاز المرسل، والمجاز العقلي) ثم نرى الصورة الكنائية ، ثم نرى الصورة الوصفية، ولكل منها شكل خاص في التعبير عن المشهد المُصور . وفي أسلوب الاستفهام نرى تعدد الأنماط الاستفهامية ، وتعدد الدلالات الانتاجية من سياق لآخر ، وفي أسلوب التعريف تتعدد الوسائل وتختلف ، فتارة تستخدم (أل) التعريف، وتارة يستخدم الاسم الموصول ، وتارة اسم الاشارة .... إلخ . ولعل هذا التنوع يدفع الرتابة عن التعبيرالقرآني ، ويبقيه مؤثراً في النفس الإنسانية.

- سادساً: يُسهم التكثيف في توسيع الدلالة بحيث تتسع رقعة المعاني المطروحة أمام المتلقي أوتكثيرها فمن شأنه – أحياناً – الدلالة على التكثير حيث تختزن اللفظة معنى الكثرة .

- سابعاً : حقق التكثيف في جزء عم غايات عدة منها: غاية إعجازية تتمثل هذه الغاية في إظهار قدرة القرآن الكريم البيانية، من خلال قلة الألفاظ وكثرة المعاني، وغاية دعوية إذْ إنَّ طريقة عرض قضايا جزء عمّ – المتعلقة بـ (التوحيد والعقيدة ، والبعث والحساب ، والجنة والنار) – على هذا النحو من التكثيف البلاغي، أسهم إلى حد كبير في نقل المعنى المنشود بجميع تفصيلاته وظروفه

النفسية ، وغاية إقناعية وتأتي هذه الغاية بعد الغاية الدعوية ، إذْ تتولد بفعل هذا التكثيف الدلالات التي من شأنها أنْ تدفع المتلقي إلى التفكر والاتِّعاظ ، وبعد ذلك التحرك والعمل بموجب ما فَهِم وعَقِل ، وحينئذٍ يبرز التكثيف بوصفه إحدى وسائل الإقناع والترسيخ .

– ثامناً: يلجأ القرآن الكريم إلى طريقة السؤال والجواب عندما يبحث في الأمور الغيبية ؛ أو قد يلجأ إلى تكرار ذكر الأمر الغيبي وتعداد صفاته، وما هذا كله إلا لتقريبه إلى الأذهان وبناء تصورٍ واضحٍ يُعِينُ عَلى إدراكه وفهمه في إطار محددٍ لا يتجاوزه العقلُ .

وفي الختام نقول إن هذه الدراسة محاولة مجتهد حاول دراسة التعبير القرآني بما يملك من وسائل متواضعة، فإن أصاب فبفضل الله ونعمه عليه، وإن أخطأ فليس له سوى أجر الاجتهاد .

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر(ت ٣٧٠هـ): **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**، ط٤، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (د.ت).

٢. ابن الأثير، أبوالفتح نصرالله بن محمد (ت٦٣٧هـ): **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**،(د.ط)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٠ م .

٣. الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت٣٧٠هـ): **معجم مفردات ألفاظ القرآن**،(د.ط)، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٢م .

٤. الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين (ت١٢٧٠هـ): **روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني**، (د.ط)، دار إحياء التراث، بيروت، (د.ت) .

٥. ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد (ت٥٧٧هـ): **أسرار العربية**، ط٢، تحقيق: محمد بهجت البيطار وأخيه ، دار البشائر، دمشق، ٢٠٠٤ م.

٦. الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف (ت٧٥٤هـ): **تفسير البحر المحيط**، ط٢،ج٨، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،١٩٨٣م.

٧. الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ): **إعجاز القرآن**، ط٥، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (د.ت) .

٨. البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد (ت٦٩١هـ): **أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف "بتفسير البيضاوي"**، ط١، إعداد: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ج٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٨ م.

٩. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ): **الحيوان**، ط٣، تحقيق: عبد السلام هارون، منشورات المجمع العلمي العربي الإسلامي، لبنان، ١٩٦٩م.

١٠. الجرجاني، عبدالقاهر بن عبدالرحمن (ت٤٧١هـ): **أسرار البلاغة في علم البيان**، ط٢، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩٢م.

١١. الجرجاني، عبدالقاهر بن عبدالرحمن، ط٣، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة،١٩٩٢ م .

١٢. الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز(ت٣٦٦هـ): **الوساطة بين المتنبي وخصومه**،(د.ط)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت) .

١٣.الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين عمر (ت ٦٠٤ هـ): تفسير الرازي المشتهر "**بالتفسير الكبير وحقائق الغيب**"، (د.ط) تقديم: خليل محيي الدين الميس، م١٦، ج٣١-٣٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م .

١٤. الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري(ت٣١١هـ): **معاني القرآن وإعرابه**، ط١، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ج٥، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨ م.

١٥. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله (ت٧٩٤هـ): **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبرهيم، ط٣، ج٣، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٩٨٤م.

١٦. الزمخشري، جار الله محمود بن عمر(ت ٥٣٨ هـ): **الكشاف (حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)**، ط٢، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، لبنان،٢٠٠١ م .

١٧.السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد (ت ٦٢٦هـ) : **مفتاح العلوم**، ط١، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠ م.

١٨.السيوطي، جلال الدين (ت٩١١هـ) : **الأشباه والنظائر في النحو**، ط١، ج٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤ م.

١٩. السيوطي، جلال الدين والمحلي: **تفسير الجلالين**، تقديم: مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د . ت) .

٢٠.الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد (ت١٣٩٣هـ): **تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، خرج آياته وأحاديثه: محمد عبد العزيز الخالدي، والتتمة من عمل تلميذه: عطية محمد سالم، ط١، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦ م.

٢١.العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله (ت٣٩٥ هـ): كتاب **الصناعتين** الكتابة والشعر، ط١، تحقيق: علي محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب، القاهرة، ١٩٥٢ م .

٢٢.العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله : **الفروق في اللغة،** ط٥، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١ م.

٢٣.العلوي، يحيى بن حمزة (ت ٧٤٨هـ): **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، ط١،راجعه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥ م.

٢٤.العمادي، أبو السعود محمد بن محمد (ت٩٨٢هـ): **تفسير أبي السعود،** (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت) .

٢٥.ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا (ت ٣٩٥هـ): **معجم مقاييس اللغة،** ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠ م.

٢٦.القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري(ت٦٧١هـ): **الجامع لأحكام القرآن**،(د.ط)، م١٩-م٢٠، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.

٢٧.القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن(ت ٧٣٩هـ): **الإيضاح في علوم البلاغة،** ط٥، شرح: عبد المنعم خفاجي، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠ م.

٢٨.القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (ت٤٥٦): **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،** ط٥، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت،١٩٨١ م.

٢٩.ابن كثير، الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل(ت ٧٤٤هـ): **تفسير القرآن العظيم**،(د.ط)، ج٤، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (د.ت) .

٣٠.الكرماني، محمود بن حمزة (ت ٥٠٥ هـ): **البرهان في توجيه متشابه القرآن**، ط١، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦ م.

٣١.الكلبي، ابن جزي (ت٧٤١): **التسهيل لعلوم التنزيل**، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م.

٣٢.المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت٢٨٥هـ): **الكامل**، ط١، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦ م.

٣٣. المصري، ابن أبي الإصبع (ت٦٥٤هـ): **بديع القرآن**، (د.ط)، تحقيق: محمد حفني شرف، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧ م .

٣٤. ابن المعتز، أبو العباس عبدالله (ت٢٩٦هـ): **البديع**، ط٣، تحقيق: كراتشفوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٣ م.

٣٥. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) : **لسان العرب**، ط١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠ م.

٣٦. ابن هشام، أبو محمد جمال بن يوسف(ت٧٦١هـ): **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**، (د.ط)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٥ م .

٣٧. ابن يعيش، موفق الدين أبو البقاء(٦٤٣هـ) : **شرح المفصل**، ط١، م٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١ م .

٣٨.إبراهيم أنيس: **الأصوات اللغوية**، ط٥، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.

٣٩. أحمد بن إبراهيم الهاشمي: **جواهر البلاغة (المعاني، البيان، البديع)**، تح: محمد التونتجي، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٩٩ م .

٤٠. أحمد زكريا ياسوف: **دراسات فنية في القرآن الكريم**، ط١، دار المكتبي، سورية،٢٠٠٦ م .

٤١.أحمد مصطفى المراغي: **تفسير المراغي**،(د.ط)، ج٣٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت) .

٤٢.أحمد مصطفى المراغي: **علوم البلاغة**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٤م.

٤٣.أحمد مطلوب: **معجم المصطلحات البلاغية**، (د.ط)، ج١، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٣ م .

٤٤.الأزهر الزناد: **دروس البلاغة العربية (نحو رؤية جديدة)**، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢ م .

٤٥.أمير عبد العزيز: **دراسات في علوم القرآن**،ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.

٤٦.أميمة الرواشدة: **شعرية الإنزياح**، ط١، منشورات أمانة عمان، ٢٠٠٤م.

٤٧. بكري شيخ أمين: **البلاغة في ثوبها الجديد**، ج٣، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧ م .

٤٨. بكري شيخ أمين : **التعبير الفني في القرآن**، ط٧، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٤م.

٤٩. جان كوهن: **بنية اللغة الشعرية**، تر: محمد الولي، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.

٥٠. حسن أبو العينين: **من الإعجاز العلمي في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية**، ط١، ج٢، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٦م.

٥١. حسن طبل: **حول الإعجاز البلاغي في القرآن**، ط١، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٩٩٩ م .

٥٢. حميد العامري: **التقديم والتأخيرفي القرآن**، ط١، دار الشؤون الثقافية، العراق، ١٩٩٦م .

٥٣. خليل عمايرة: **في نحو اللغة وتراكيبها**، ط١، دار المعرفة، جدة، ١٩٨٤م.

٥٤. خير الدين الزركلي: **الأعلام**، ط١٠، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢ م .

٥٥. داود سلمان السعدي: **أسرار الكون في القرآن**، ط١، دار الحرف العربي، بيروت، ١٩٩٧ م.

٥٦. ريتا عوض: **بنية القصيدة الجاهلية (الصورة الشعرية لدى امرئ القيس)**، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢ م.

٥٧. زكريا هميمي: **الإعجاز العلمي في القرآن**، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٢ م.

٥٨. سعد مصلوح: **الأسلوب دراسة لغوية إحصائية،** ط١، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨٠ م .

٥٩. سيد قطب: **التصوير الفني في القرآن،** ط٩، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٦٠. سيد قطب: **في ظلال القرآن،** ط٥، م٨، ج٣٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٧ م .

٦١. صبحي البستاني: **الصورة الشعرية في الكتابة الأدبية (الأصول والفروع)،** ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٨٦ م .

٦٢. صبحي الصالح: **مباحث في علوم القرآن،** ط٤، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٦٥م.

٦٣. صلاح الدين عبد التواب: **الصورة الأدبية في القرآن،** ط١، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٥ م.

٦٤. صلاح فضل: **علم الأسلوب مبادئه وإجراءته،**ط٢، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥ م.

٦٥. صلاح فضل: **نظرية البنائية في النقد الأدبي،** ط٣، دار الشؤون العامة وآفاق عربية، (د.ت) .

٦٦. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): **الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق،** ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٨٤ م.

٦٧. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): **التفسير البياني للقرآن الكريم،** ج١/ج٢، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨ م .

٦٨. عبد الإله الصائغ: **الصورة الفنية معياراً نقدياً**، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧ م .

٦٩. عبد السلام الراغب: **وظيفة الصورة الفنية في القرآن**،ط١، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ٢٠٠١ م.

٧٠. عبد السلام المسدي: **الأسلوبية والأسلوب**، ط٥، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ٢٠٠٦ م .

٧١. عبد العليم عبد الرحمن خضر: **الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن**، ط٣، الدار السعودية للنشر، جدة، ١٩٨٧ م.

٧٢. عبد الفتاح لاشين: **البيان في ضوء أساليب القرآن**، ط٣، دار المعارف، القاهرة،١٩٩٢ م.

٧٣. عفَّت الشرقاوي: **بلاغة العطف في القرآن الكريم (دراسة أسلوبية)**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ م.

٧٤. علي البطل: **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري**، ط٣، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣ م.

٧٥. فاضل السامرائي: **التعبير القرآني**، ط٢، دار عمار، الأردن، ٢٠٠٢م.

٧٦. فاضل السامرائي: **لمسات بيانية**، ط٣، دار عمار، الأردن، ٢٠٠٣م.

٧٧. فضل حسن عباس : **البلاغة فنونها وأفنانها**، ط٨، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٣ م .

٧٨. محمد أبو موسى: **خصائص التراكيب**، ط٣، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٠م.

٧٩. محمد أحمد خلف الله: **الفن القصصي في القرآن الكريم**،ط٤، دار سينا للنشر، بيروت،١٩٩٤ م.

٨٠. محمد بركات حمدي أبوعلي: **في الأدب والبيان**، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان،١٩٨٤ م .

٨١. محمد حسن عبدالله: **الصورة والبناء الشعري**، ط١، دار المعارف، مصر، ١٩٨١م.

٨٢. محمد دراز: **النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن)**، ط٦، دار القلم، الكويت،١٩٨٤م.

٨٣. محمد شعبان علوان: **من بلاغة القرآن**، ط١، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٤ م.

٨٤. محمد الطاهر ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، (د.ط) الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م.

٨٥. محمد عبد المطلب: **البلاغة العربية قراءة أخرى**، ط١، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٧ م .

٨٦. محمد عبد المنعم خفاجي: **النقد العربي الحديث ومذاهبه**،(د.ط) مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٥ م.

٨٧. محمد علي أبو حمدة: **البهيج في أساليب البيان**، ط١، دار عمار، الأردن، ١٩٩٩ م.

٨٨. محمد علي الصابوني: **صفوة التفاسير**، ط١، القسم العشرون، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٨١ م .

٨٩. محمد فؤاد عبد الباقي: **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**،(د.ط)، دار ومطابع الشعب، (د.ت) .

٩٠. محمد كامل عبد الصمد: **الإعجاز العلمي في الإسلام**، ط٢، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣ م.

٩١. محمد متولي شعراوي: **المنتخب من تفسير القرآن الكريم**، (د.ط) تقديم: أحمد زين، دار العودة، بيروت، (د.ت) .

٩٢. محمود أحمد نحلة: **دراسات قرآنية في جزء عمّ**، ط٢، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٩ م.

٩٣. محمود صافي: **الجدول في إعراب القرآن وبيانه**، ط١، دار الرشيد، دمشق، ١٩٩١م.

٩٤. مختارعطية: **علم البيان وبلاغة التشبيه**، ط١، دار الوفا، الإسكندرية، ٢٠٠٤م.

٩٥. مناع القطان: **مباحث في علوم القرآن**، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠م.

٩٦. يوسف أبو العدوس: **مدخل إلى البلاغة العربية**، ط١، دار المسيرة، عمان، ٢٠٠٧ م .

الرسائل الجامعية:

١- إبراهيم عقلة الحجاج: **جزء عمَّ (دراسة أسلوبية)**، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠٠٦ م .

٢- معين رفيق صالح: **دراسة أسلوبية في سورة مريم**، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠٠٣ م .

الدوريات:

- محمد سليمان العبد: **من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم**، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، م٩، ع٣٦، مجلس النشر العلمي، الكويت، ١٩٨٩ م .

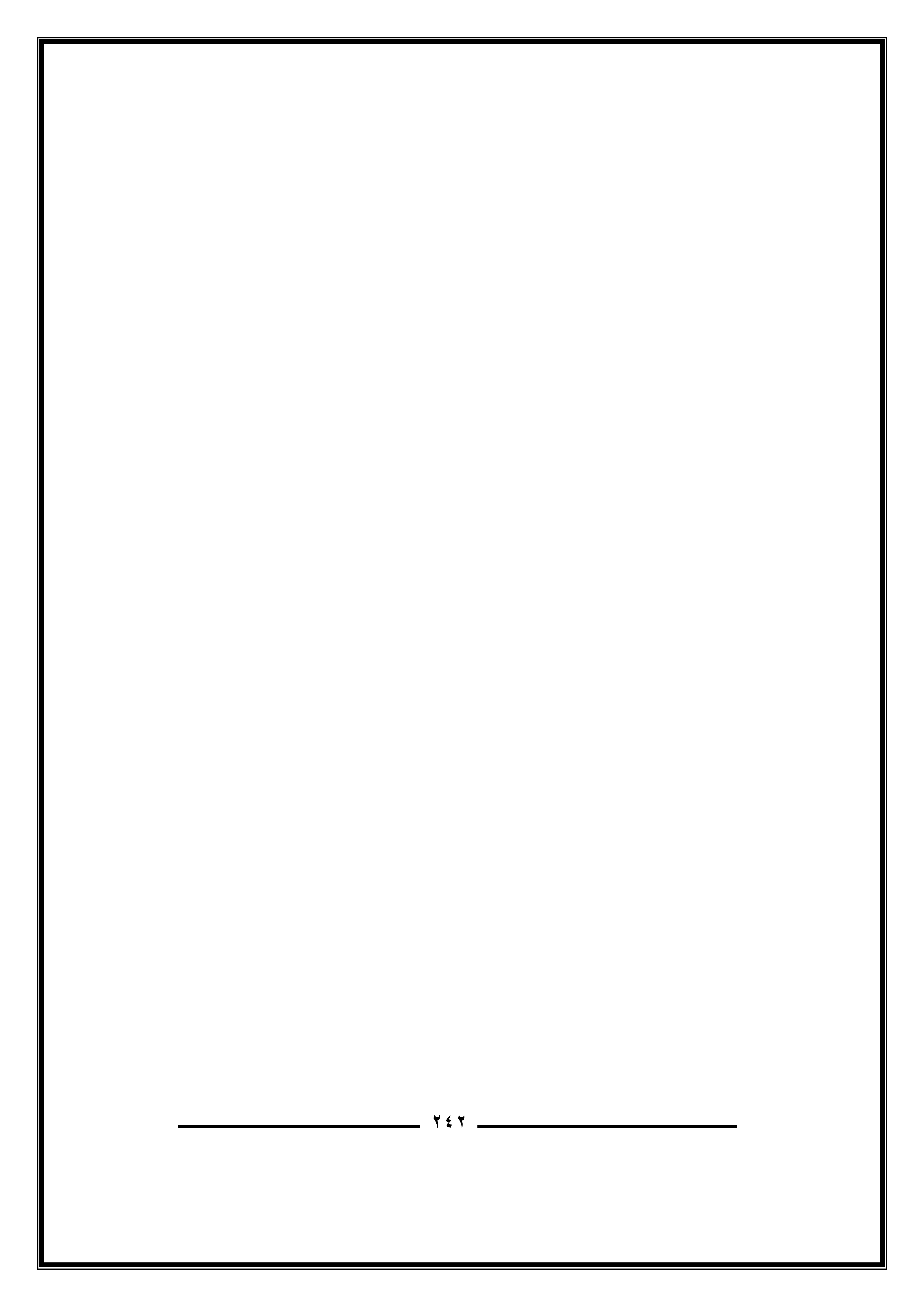
مواقع الكترونية:

- محمد يوسف سكر: **الناصية ووظيفة الفص الجبهي للدماغ، دراسة إعجازية لسورة العلق**، الموقع الالكتروني: لرابطة العالم الإسلامي (الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة) **www.nooran.com**

Abstract

Rhetorical Condensation in Holly Quran
"Amma part"
A Stylistic Study

This research aims at investigating and studying the (Rhetorical Condensation) in Amma part. The researcher tackles the concept of this part and the Condensation use of the rhetoric factors in it, which are based on the choice of attractive stimuli that includes semantic meanings. These stimuli attract the attention on the photographed scene and it can be stored in the minds, the research also highlights on the (simile, metaphoric symbolic and descriptive entailments) in Amma Part. The researcher moved to speaking about the style of this part by uncovering some of the stylistic phenomena in writing through using (definite and indefinite article , repetition interrogation)and back warding these styles have several entailments which can be changed by the context .



الفهــرس